

فصل الأحمر

ماستر لسانيات الخطاب

محاضرات السداسي الثاني

بيبليوغرافيا تحليل الخطاب الغربي

الإضافات السيميائية إلى تحليل الخطاب

- مفاهيم عامة حول السيميائيات:

ككل مصطلح، يتكون مصطلح سيميائية حسب صيغته الأجنبية (Sémiotique) أو (Sémiotics) من جذرين (Sémio) و (tique) إذ أن الجذر الأولى الوارد في اللاتينية على صورتين هما (Sémio)

و (Sema) يعني إشارة أو علامة، أو ما يسمى بالفرنسية (Signe) وبالإنجليزية (Sign)... في حين أن الجذر الثاني يعني - كما هو معروف - (علم)(1).

ونشير كذلك إلى الجذر الآخر الذي يعني (علم) في اللغات الأجنبية واللاتينية خاصة، وهو (Logie)، وهذا لكي نعد ما يمكن أن يرادف الذهن من إبهام فيما يتعلق بمصطلحي (Sémiotique) الأمريكي المنبث من (Sémiologie) الفرنسي المنبث(2).

وبعملية تركيب بسيطة نجد معنى هذا المصطلح هو علم الإشارات أو علم العلامات ... وهو العلم الذي اقترحه سوسير كمشروع مستقبلي لتعميم العلم الذي جاء به (اللسانيات)، فيكون العلم العام للإشارات(3).

ونشير إلى مصطلح مماثل عثرنا عليه أثناء بحثنا عن مصطلحنا والأمر يتعلق بمصطلح (Séméiologie)(4) - بالمد بعد الميم المكسورة- وهو مصطلح طبي يعني علم دراسة أعراض الأمراض، أي أنه يعني دراسة الإشارات والعلامات الدالة على مرض معين، ومن هنا نكون أقرب إلى الصواب بتفضيل مصطلح سيميوطيقا تقاديا لأي إشكال ممكن أو اشتباه ناشئ من الشبه بين المصطلح الذي نحن بصدد دراسته وبمصطلح الطبي ... ولكن هذا يبقى رأيا شخصيا نبديه، لا غير.

(1) Dictionnaire de linguistique - (Larousse) - 1980 - Paris- p :434.

(2) Mounin, George : introduction à la sémiologie - ed minuit- Paris- 1972 - p :50.

(3) Grimas, Algindas Juliens : Grande Encyclopedie Larousse- Paris - 1976- p : 10987.

(4) Dictionnaire Larousse- ed Larousse- 1980- p : 937.

ونعود إلى السيميائية من حيث فكرة مشروع سوسير لننظر إليها من الوجهة اللسانية لأنها الوجهة الأولى الواجب استحضارها، إذا استحضرنّا العامل الأساسي الواجب استحضاره وهو فكرة تبني السيميائية من طرف اللسانيات كمشروع مقترح، وكمشروع منجز، فالذي اقترح السيميائية هو فردينان دي سوسير، وهو لساني، والذي طور الأطروحة لسانيون أيضا. يقول عالم الدلالة الألماني هربرت بريكل: (يمكن أن تعد اللسانيات جزء من السيميائية)⁽⁵⁾، ونقرأ مقولة جوليا كريستيفا عن أن (دور السيميائية هو بناء نظرية عامة عن أنظمة الإبلاغ)⁽⁶⁾ ...

وعلى ضوء هاتين المقولتين نفهم، ولو عموما، الفرق بين العلمين وكذلك العلاقة بينهما، إذ إن بريكل يفرق بين مستويين من مستويات الدراسة، الأول هو مستوى المعالجة الإنسانية للتبليغ، وتعامل معه اللسانيات إذ تدرسن التبليغ الإنساني اللغوي (أي اللساني، بحكم تعلق اللغة باللسان طبعا) ... أما المستوى الثاني فهو المستوى العام (ونقف هنا وقفة قصيرة لكي نعيد على مسامعنا لفظة "عام" المتعلقة بالسيميائية كنظرية للتبليغ)، أي دراسة الإشارات مهما كان نوعها، والتعامل مع أنظمة الإبلاغ- حسب تعبير كريستيفا- كيفما كانت، وهذا ما سنعود إليه فيما بعد. ويقول غريماس⁽¹⁾ أن العلاقة بين اللسانيات والسيميائية تبدو لأول وهلة بسيطة، ولكنه يستدرك قائلا (ولكن اللغات الطبيعية – المادة الأساسية للدراسات اللسانية- تحتل مركزا هاما وذا صدارة على أساس أن النظم الإشارية الأخرى كلها قابلة للانتقال إليها- إلى اللغات الطبيعية- وليس العكس...)، وهنا نلتفت إلى الإشارة الهامة إلى فكرة اللغات، وأنظمة التبليغ الطبيعية (أي اللغة الإنسانية) وغير الطبيعية (أي الأنظمة التبليغية الاصطناعية كالإيماء ولغة الإشارات البحرية وكل الأنظمة التبليغية غير اللسانية)، إذ أن الدارسين لاحظوا ما يسميه رولان مارت (فقر المجاملات أمام السيميائية)⁽²⁾، وذلك أن أي نظام غير لساني يجد نفسه حتما في حاجة إلى جسر عبور يجده في صلب اللغات الطبيعية، بحيث يستحيل علينا تمثيل أي نظام تبليغي غير لساني بدون وساطة نظام تبليغي لساني ما ... وهذا يمتزج باللساني، وبالتالي فالسيميائية فرع من اللسانيات)⁽³⁾.

(5) Brekle , Herbert : Sémantique- ed colin- Michel- Paris- 1970- p :19.

(6) op.cit- p :19.

(1) A. J. Greimas – op. cit. p : 10987.

(2) Dictionnaire de linguistique – p : 434.

(3) op. cit- p :434.

وبعد أن اتضحت بعض الشيء الحدود الفاصلة بين اللسانيات والسيمائية، وهي حدود سيزداد اتضاحها عندما نتعرض إلى السيميائية غير اللسانية، وجب أن نتعرض إلى نشأة هذا العلم وإلى الخلفيات الإبستمولوجية التي تمخض عنها.

ويرى غريماس* أن السيميائية علم جديد مستقل تماما عن الأسلاف البعيدين وهو من العلوم الأمهات ذات الجذور الضاربة في القدم، فهي -أي السيميائية- علم جديد، وهي مرتبطة أساسا بسوسير - كما أسلفنا القول- وكذلك شارل ساندرس بيرس (c.s.Peirce) الذي نظر لها مبكرا، ونشأ هذا العلم في فرنسا اعتمادا على أعمال (جاكوبسن jakobson) و(هيلمسليف hjelmslev) خاصة، وكذلك في روسيا اعتمادا على أعمال جاكوبسن دائما، كل هذا أثناء الستينات من هذا القرن، إذ انتشر بسرعة وشاع شيوعا فاحشا تجسده عليه علوم أخرى كثيرة... وذلك أن عددا ضخما من الدراسات قد أنجز ضمن السيميائية - رغم أنها ظلت بعيدة عن مناهج التدريس الجامعي- ويرى غريماس أنها (يمكن عدّها تطويرا لخلاصة أعمال المدارس اللسانية ببراغ وكوبنهاغن لفترة ما بين الحربين)... أي ان اللسانيات اتجهت تلقائيا إلى المنحى السيميائي في الفترة المذكورة، لهذا نستطيع القول بأن التطوير في هذه الدراسات يعطي بلا شك ولا جدال علم السيميائية، والسيميائية تتطلع مع كثير من العلوم، في سبيل التطوير المذكور للدراسات اللسانية (في مجالات علم الخرافة المقارن [جورج ديميزيل]، علم الإناسة [كلود ليفي ستروس]، التحليل النفسي [جاك لاكان] الآداب [رولان بارت]... الخ) والتجديد - كما نرى هنا- يعد فتحا مبينا لمجالات لا تحصر... وهو في الوقت ذاته يهدف إلى جعل السيميائية مستقبلا حتميا للسانيات عموما.

وبعد هذا العرض السريع المدقق لما قاله غريماس حول أصول السيميائية نقرأ مع بريكل قوله عن الخلفية الإبستمولوجية لهذا العلم، إذ أن (المعارف البشرية أنتجتها عقول متعددة في أزمنة متعددة، وهذا ما يستلزم وجود قانون مشترك للإشارات، يسمح بانتقال المعارف من جيل إلى جيل... هذا الوسيط يعد عاملا أساسيا في العلوم وليس ديكورا إضافيا)⁽¹⁾... أي أن الاعتماد على قانون مفهوم عبر الأجيال وعبر الأمكنة يستلزم علما يستوفي هذه الإشارات حقها من الدراسة لتوحيد أو لتقريب المفاهيم بعضها من بعض. وربما - على وجه من الأوجه- يكون هذا

* في كل ما سنقله ذاكرين غريماس، يرجع إلى الموسوعة لاروس الكبرى، وبالضبط إلى فصل السيميائية (Sémiotique) الذي يحتل صفحتي 10987 و10990 من المجلد الثامن عشر من هذه الموسوعة. إذ عملنا على تلخيص أفكاره وشرح الغامض والتعليق عليها وتعزيزها بأراء باحثين آخرين مشار إليهم.

(1) Brekle- op. cit- p : 19.

الأمر هو السند الأقوى لنشوء اللسانيات مثلما هو أحد أسانيد نشوء السيميائية للأسباب التي رأيناها حينما تعرضنا لنقاط الشبه والتباين بين العلمين.

ومن باب تنظيم الأفكار، وقبل الانتقال إلى الحديث عن السيميائية خارج الإطار اللساني، والتي يقرأها بعضهم^(*) بقدر ما يعلي البعض الآخر من شأنها ويوسع من دائرتها ويفسح في مجالاتها... قبل هذا الحديث وجب أن نطرح سؤالاً حول مدى استقلالية السيميائية – كمشروع مقترح، ومعمول ضمنه بهدف إنشاء علم لدراسة أنظمة التبليغ كلها- عن الإطار اللساني لهذه الدراسة... ونجد غريماس يصرّ على صفة الريادة الكامنة في اللغات الطبيعية، والتي يراها هو نفسه (تتجلى في قدرتها على تطوير أنظمة مستقلة في صلبها، إما بتكوين فضاءات سيميائية طبيعية [الحقوق، الأخلاق، الدين... الخ] وإما بإعانة بعض الأنظمة الاصطناعية الأخرى كالعلوم المستحدثة مثلاً ... ومن جهة أخرى فهذه اللغات تمنح فرصة دراسة نفسها [النحو] ودراسة أنظمة لغوية أخرى [المنطق]...)⁽²⁾ وبهذا النص يضع غريماس يديه على صلب الإشكالية في الحد أو الحدود الفاصلة بين العلمين، لفهم نحن أن السيميائية مهما احتوت اللسانيات فإن اللسانيات تظل محتقظة برونقها وتميزها بسبب طبيعة المادة الإشارية أو الوسيلة التبليغية التي تتعامل معها (وهي اللغات الطبيعية)، فعند البحث نجد اللسانيات أكثر حيوية وحرية في الحركة وأوسع مجالاً في إمكانية إيجاد فضاءات رحبة للتعامل مع مادة الدرس والبحث بحكم القابليات العديدة والامتيازات الواسعة التي تمتلكها على النظم الإشارية الأخرى.

ويجعل غريماس العلمين في موقعي الخصمين. وهذا هو الموقف الذي نستشفه من خلال أمل سوسير وتقدير جوليا كريستيفا من جهة، وتقدير رولان بارت وغريماس نفسه، من جهة أخرى. وهذا الموقف يتضح من خلال افتخار السيميائية بأن لها مجالاً واسعاً للدراسة بحكم دراستها لكل أنظمة التبليغ وعدم انكماشها، في حين نرى اللسانيات وتوقعها حول الدراسة اللغوية الإنسانية، وافتخار اللسانيات بأن لها مجالاً – رغم عدم اتساعه- أخصب وأوسع أفقاً بكثير من مجال السيميائية، بل وإضافة إلى ذلك – إن السيميائية في حاجة إلى اللغة الطبيعية من أجل التعبير عن اللغات الاصطناعية ودراستها أي أن السيميائية – بلغة أيسر- في حاجة إلى المادة الأساسية لخصمها (اللسانيات) من أجل أن تتطور.

(*) رولان بارت مثلاً، كما هو واضح من خلال مقولة سابقة الذكر.

(2) غريماس: المقال نفسه.

ومن خلال هذه المقابلة بين السيميائية واللسانيات ينشأ لدينا الاقتناع بأن مشروع السيميائية واللسانية مفتوحة أرجاؤه على أبعاد جديدة من جراء استعمال مادة الدراسة القديمة (اللغات الطبيعية) من أجل تطوير ودراسة فضاءات تبليغية جديدة- هي فضاءات الدرس السيميائي غير اللساني.

2- السيميائية غير اللسانية:

إن المشكلة – حسب غريماس دائما- تكمن في انفتاح الأبواب وانغلاقها أمام المشروع السيميائي، فهناك علاقة دورية (نسبة إلى نظرية الدور الديكارتية) غير مفصول فيها بين الفكر واللغة- بكل ما تحمله القضية من خلفيات معرفية فلسفية- واللسانيات فصلت بين الفكر واللغة، أي بين الدال والمدلول، فلم تعد تواجه مشكلة، ذلك أنها تدرس هذا مستقلا عن ذلك، فلا تتعرض تماما إلى المشكلة سابقة الذكر.

والحقيقة أن موقف اللسانيات هذا فيه شيء من موقف الذي يدير ظهره صوب المشكل معتقدا أنه تخلص منه. وهذا هو الإشكال الذي تواجهه السيميائية ، إذ أنها تجد نفسها مجبرة على استعارة دوال معدة من قبل للتعبير عن مدلولات مستحدثة – وذلك ليس مطردا فقط، بل فاحش الاطراد- هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللسانيات فرضت على أشكال التواصل بعض القوالب التي يصفها غريماس بالإمبريالية إذ أصبحت – بحكم صلاحيتها المعترف بها – تتمتع ببعض السلطة المطلقة (un pouvoir absolu) ، وأصبحت تعاملاتها مع المجالات المعرفية الإنسانية تنحو منحى الشكلية الجوفاء (مناقشات وتعليقات مهضومة) حسب تعبير غريماس . ويعطينا هذا الأخير أمثلة عن هذه المعاني التي لا تستوفيها اللسانيات بمفاهيم مثل (المعيش)، (المدرک)، (الطارئ)، فهذه مفاهيم عويصة بعض الشيء، إذ عندما نقول مثلا أن اللون الأسود في لوحة الجوكاندا معيشٌ في تجربة ليوناردو دافنشي الفنية، فماذا يعني هذا الكلام بالنسبة إلينا؟ إنه كلام سطحي إلى درجة كبيرة إذا ما قيس بالمدلولات التي أراد أن يحددها، ليس هناك أدلّ على ذلك من كوننا أردنا تحديد مفهوم هذه الجملة، أي حصر هذا المفهوم ومدلولات الدوال في الجملة، فإننا نحتاج إلى تعابير عديدة وجمل كثيرة تحاول الحصر دون أن تستطيعه والاستعصاء في

التحديد يوضح عجز الوسائط اللسانية عن الإلمام بالتجارب غير الملموسة وغير اللسانية- إن شئنا أن نقول ذلك، على أساس أن التجربة التي تحصر بوسائط لسانية تصير تجربة لسانية-، هذا هو العجز الذي تحاول السيميائية التغلب عليه.

ويحدد غريماس - تاريخيا- هذه المسألة، فيقول أن عجز نظرية التواصل (التبليغ) أنتج التكملة الحتمية لهذه النظرية - وهي نظرية الدلالة - أي أن التبليغ لا يكفي بركنيه الكلاسيكيين وما حولهما - حسبما هو وارد في نظرية التبليغ (أي المتلقي والباث) - بل يتعداهما إلى السياقات والخلفيات الفكرية والنفسية والاجتماعية لركني التبليغ، ومن الباث والمتلقي انتقل الاهتمام مع المدرسة السيميائية إلى الرموز والإشارات الخفية التي تكمن وراء الكلمات وأبعد بكثير منها ... وراء الأشياء التي جرت العادة على اعتبارها مسلمات جامدة يجب ألا نبالي بها...

وبعيدا عن المقال الذي نحن بصده يعبر غريماس نفسه عن الفكرة نفسها بصيغة أدق، إذ يقول في كتابه الشهير (عن المعنى) إن اللغة (شكل غير مبال بما يحيط به)⁽¹⁾، ثم يقول الدلالة (تختفي وراء الأصوات ... ولكنها تختفي أيضا وراء الصور، الروائح، الأذواق... دون أن تكون - أي الدلالة - محتواة في الأصوات أو الصور ...)⁽²⁾.

وتعبير اللامبالاة الذي يلحقه غريماس باللغة يعبر بوضوح عن ضجر السيميائيين من تحجر البنى اللغوية المتأكلة منذ القديم، والمتكررة مع كل مجال دلالي جديد... فاللغة هنا كائن متكبر نعود إليه في برجه العاجي حالما احتجنا إليه، ولكنه هو لا ينزل من البرج أبدا... والسيميائيون يطمحون إلى استشراف خوارق الإشارات الصادرة عن الكون ككل لا عن تلك البقعة الصغيرة في الكون المسماة اللغة الإنسانية، لذلك ينتقل غريماس بالدلالة بعدما حررها من الحيز الصوتي إلى أماكن عدة لتحل كل محلّ، فهي وراء الروائح، والمذاق والصور بشتى أنواعها... وكل شيء مما ندركه ومما لا ندركه يوحي لنا بشيء ما ندركه أو لا ندركه.

ثم يتحدث غريماس عن التطور الطبيعي للبحث عن أشكال التبليغ الجديدة، فيقول إن المجال السيميائي اتسع اتساعا كبيرا وفوضويا بفعل التطبيقات السيميائية، إذ تحولت الدراسة إلى كل ما من شأنه أن يشكل سلوكا دلاليا منظما في تتابعات (سلاسل) استبدالية وهو يستعمل هذا التعبير بالذات عوضا عن التعبير اللساني الدلالي الشائع (سلاسل دلالية) أو حتى التعبير المنتظر نوعا ما (سلاسل لسانية) ... يستعمل التعبير (سلاسل استبدالية) ليصر على تعدد الرؤى واختلاف

(1) Greimas Algindas Julien : du sens – ed du seui – paris – 1970- p :49.

(2) op. cit- p :49.

التأويلات وهذا من القواعد السيميائية... ونستحضر هنا ما يقوله عبد الملك مرتاض في دراسته (أ - ي) محاولا التنظير للمنهج السيميائي المستعمل في أوروبا، إذ يقول أن نقدي أي ناقلين من هذا المذهب – للنص نفسه يمكنهما ألا يفضيا إلى النتيجة نفسها، بل ويمكن أن تكون نتيجتا النقيدين متناقضين تماما، ثم يضيق أن ذلك الاختلاف شيء محمود، بل ومقصود ومرجؤ⁽³⁾.

ونختم الحديث عن السيمياء خارج الحيز اللساني بإشارة غريماس إلى استحالة حصر مكتسبات هذا العلم لتعدد مجالات مداخلته... بل إن صفة المقاربة العلمية تستوجب مسئوليات جمّة، وذلك ما حدث للبنىوية عند ظهورها إذ تبنتها العلوم كلها، لتصير البنى عديدة بشكل مخيف، فمن بنية لغوية إلى بنية فراغية إلى بنية إقتصادية إلى بنية رياضية إلى بنية حيوية، إلى بنية معمارية، إلى بنية فكرية... الخ من البنيات... كذلك فقد صار لدينا عدد غير متناه من السيميائيات الشيء الذي ساعد على إنشاء مجالات معرفية جديدة لم تكن بالأمس تطمح إلى أكثر من سخرية العلوم المتبناة، كدراسة الأشرطة المصورة، والفضاءات الديكورية المسرحية، والإشهار، والألعاب والألوان... الخ، وهذا ما يوصي بالتشتت وانعدام التعامل في درجات تطور فروع هذا العلم، بل إن بعض السيميائيين لا زالوا يتحدثون عن (مشروع سيميائي عوضا عن الحديث عن (سيميائية متكاملة الأطراف).

ويقر غريماس بأن بعض المجالات فقط في السيميائية تمتلك أبعادا محددة: اللغة الطبيعية، السيميائية الشعرية وسيميائية الخطاب... أما الباقي فمجاله محدود إلى حد الآن...

3

- مفهوم الإشارة:

إن الحديث عن علم الإشارات يستلزم الحديث عن الإشارة نفسها ولن نتعرض إلى التعريفات الطويلة للإشارة، ونكتفي بأخذ أيسر التعاريف إذ هي من الفعل أشار يشير، ومعناه تعيين الشيء بالحس، أو الحاصل من الامتداد الموهوم الآخذ من المشير إلى المشار إليه. أو – عموما- تعيين الشيء، بأنه هنا أو هناك^(*)...

(3) مرتاض عبد الملك: (أ - ي) – ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط: 1 - ص: 16.

(1) Brekle- op. cit- p : 15.

(2) Dict. de linguistique- p : 435.

(3) Larousse Encyclopédie- p : 10987.

(*) معلومات ملخصة من كتاب البستاني، بطرس: محيط المحيط- مكتبة لبنان- بيروت- 1977 - ص 488.

ثم ننتقل إلى الحديث عن المفهوم اللساني أو العلمي إذا شئنا التدقيق للإشارة، ولن نتوقف عند الفكرة التي مرت معنا من قبل والتي لخصها بريكل عن الخلفية الفكرية لنشوء السيميائية إذ قال ما معناه إن الإنسانية كانت دائما بحاجة إلى نظام إشاري تنقل بواسطته المعارف التي تكسبها على مر الأجيال من جيل لآخر⁽¹⁾ .. والتي -أي الفكرة- نعتقد أنه أخذها مباشرة من تساؤل تشارلز بيرس. بيرس الشهير طارحا السؤال الذي كان من المقرر أن يكون إشارة الانطلاق لعلم السيميائية في ذلك الوقت:

(ما هي الخصائص التي من المفروض أن تميز الإشارات التي يستعملها الفكر البشري في مسيرته العلمية؟)⁽²⁾.

والواقع السيميائي يجعلنا نستنتج أن هذا السؤال، وبالتالي الفكرة التي ذكرها هربرت بريكل، قد تجاوزهما الزمن، بحيث أن الدراسات السيميائية التي جاءت وتطورت كثيرا خلال ربع القرن الموالي لتساؤل بيرس قلما تتعرض للمسألة التي توقعها بيرس. أما ما نراه واقعا لهذه الدراسات فهو البحث عن المكونات الصغيرة لمعاني الأشياء حسبما يصنفها غريماس⁽³⁾ ... وهذا التصنيف يعطينا نظرة تقريبية عن تطور (المعنى)، فمنذ بداية مخططات سوسير ومنظري نظرية الاتصال حول كون التبليغ (أو التواصل) هو انتقال صورة ذهنية عن طريق قرينة هي الصورة الأكوستيكية (السمعية) من الباحث إلى المتلقي، ثم جاء علماء الدلالة ليطوروا الأطروحة باحثين عن الملاحظات الخفية لهذه العملية، فدرسوا من ضمن أهم ما درسوه فكرة السياقات والظروف المحيطة بالباحث والمتلقي، فأصبحت الصورة الأكوستيكية أوسع إichاء على المستوى الذهني مهما كان يعتقد سوسير ومن طوروا أطروحته ثم أنتت السيميائية لتدرس مشكلة المعنى وطرق ظهوره وسبل تجليه عبر الدوال التي يتعلق بها، فالحقيقة أن الإشارات هي مركب المعنى على بحر الأشياء والدوال والمدلولات⁽¹⁾ ... بحيث أن غريماس نفسه يذهب إلى حد حصر دور السيميائية في وصف الإشارات ووصف سبل علاقاتها بالأشياء، سائرا في ذلك على خطوات هيلمسليف، (فوجود السيميائية لا يمكن تمثله إلا كحالة ضمنية، أي أنها لا توجد إلا بإمكانية للوصف: فعامل

⁽¹⁾ op.cit- même page.

الوصف هذا تثيره السبل المعرفية وتجذبه إلى الوجود الملموس... فالسيمائية غير متواجدة كمادة مستقلة بذاتها، كواقع ممكن وصفه، والوصف ذاته لا يمكن تمثله إلا مع وجود شيء ما للوصف⁽²⁾.

ولكننا نتساءل ما الذي نصفه ؟

على هذا المستوى فقط تصبح الإشارة موضوعا مستقلا بذاته، تصبه الإشارة مخزنا لدلالاته، للمعاني،...ولكننا لا ندرك إلى الآن طبيعة الإشارة بالذات. وقد تناول الباحثون والمنظرون هذا الموضوع (أي طبيعة الإشارة) من زوايا متنوعة ولكننا فضلنا تناول تشارلز موريس الذي ينظر إلى القضية من زاوية المذهب السلوكي الذي ينتمي إليه، وذلك هو الأمر الذي طرحه مفصلا في كتابه (الإشارات اللغة والسلوك).

وقبل هذا نتعرض إلى تعريف هيغل للإشارة، من باب الاتصال بمبادئ نظرية الإشارة، والإطلاع على ما بلغه الفكر اللغوي (التبليغي) قبل القرن الحالي.

يقول إن أي فكرة لها ممثلها على المستوى الذهني أي الصورة المصاحبة لها، ولديها مكافي خارجي، ويسمها هيغل (الواقع) و(التمثيل) ويقول أن التمثيل عندما يحرر ويفصل عن الواقع الحاضر الخارجي ليصبح موضوعيا، يكون (أي التمثيل) وجها لوجه إزاء الواقع، كأنهما شيان مستقلان بعضها عن البعض الآخر. والواقع الخارجي يصبح إشارة عندما يكون مشتركا اعتمادا مع تمثيل لا علاقة له به، بل ويفصل عنه بواسطة محتواه، بحيث يصبح هذا الواقع تمثيلا لذلك المحتوى أو معنى له⁽³⁾.

وهذه المقولة ثرية جدا بالمعاني رغم أنها تبدو لأول وهلة غامضة، وليس هذا غريبا بالنسبة إلى من ألف لغة هيغل... إلا أن المعنى الهيجلي العويص ليس مستغلفا، بل يتضح معناه جليا إذا تعاملنا معه بواسطة التشريح والتناول الجزئي، فالإشارة حسب هيغل تتطلب ثلاثة عناصر هي واقع الأشياء، الصورة الذهنية والتمثيل الصوتي أو اللغوي للصور الذهنية. وأول ما يبدأ به هيغل عملية الإدراك هذه هو الفصل بين الأشياء في عالمها الخارجي المعروض لإدراك الحواس وبين تمثيل، على المستوى اللغوي، وهذا هو المفهوم الذي عبر عنه فيما بعد سوسير بالفصل بين

(2) du sens – p : 22-23.

(3) Rey, Main : theorie du signe et du sens – ed Klincksieck- Paris- 1973- p :177-179.

المفهوم والصورة الأكوستيكية، إذ اعتبر التحامهما معا يشكل لنا الإشارة أو العلامة حسب الترجمات السوسرية... (4)

ثم يحدد هيغل مفهومه للإشارة (أو العلامة) على أنها الارتباط أو الاشتراك الاعتباري بعين واقع الأشياء الذي يوحد مع الصورة الذهنية بحكم كون الصورة الذهنية هي ترجمة الحواس للواقع الخارجي، وبين التمثيل.

ولا نرى - من جانبنا - أي فرق بين هذا المفهوم والمفهوم السوسيري العلامة (الإشارة)، ولا نعتقد أن سوسير حينما تراجع عن تسميتي المفهوم (الصورة الذهنية) والصورة الأكوستيكية، ليعوضهما بمصطلحيه (الدال) و(المدلول) (signifié/ signifiant) (1).

بل إن نص سوسير واضح في إثبات ما ذهبنا إليه حول الشبه بين ما عبر عنه هيغل حول الإشارة وما يقوله سوسير نفسه. (العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية، بحيث أننا، وقد اتفقنا حول كون الإشارة هي النتيجة العامة للاشتراك بين دال ومدلول معينين، نستطيع أن نقول أن الإشارة اللغوية اعتبارية) (2)

أما الآن وقد فهمنا هذه النظرة، ننتقل إلى آراء تشارلز موريس والسلوكية حول مفهوم الإشارة.

يبدأ موريس بتعريف بسيط للنيابة (من نائب عن "ع" إذا كان يتحكم في سيرورة الموضوع المعني بالأمر نحو الهدف الذي كان "ع" سيتوده إليه لو كان حاضرا) (3). وهو يرى أن (الإشارة ليست نائبا عن منبه ما ... لأنها لا تثير الإستجابة نفسها التي يثيرها الوضع الحقيقي) (4)

أما تعريف الإشارة فيأتي على النحو التالي:

(حينما يغيب "موضوع / منبه" مثير للقطات استجابية منتسبة لعائلة سلوكية ما، ويكون "س" منبها تحفيزيا مثيرا لاستعدادات معينة من أجل الاستجابة - خضوعا لشروط ما- بواسطة لقطات استجابية من العائلة السلوكية نفسها، نقول أن "س" إشارة) (5).

(4) Saussures Ferdinand de : cours de linguistique générale- Payot- Paris- 1972- p :98.

(1) op. cit- p : 14 [C.L.G – p : 99].

(2) op. cit- p : 15 [C.L.G- p : 100]

(3) Morris Charles : Signs, language and behaviour- prentice + all- New York- 1946- p:7.cité par :

Mounin, Gorges : introduction à la sémiologie- ed Minuit- Paris- 1970-p : 50.

(4) op .cit- p : 50 [S.L.B- p : 7].

(5) op. cit – p :50 [S.L.B- p :10].

ولتيسير هذا الكلام نفرض أن (الموضوع/ المنبه) هو "ع" ونقول إن "ع" يثير استجابات (أ)، و"س" إشارة إلى "ع" إذا كان "س" يستطيع إثارة استجابة (أ) بحيث تكون (أ) و (أ) استجابتين من العائلة السلوكية نفسها، أي أنهما استجابتان متماثلتان، وهذا لا يعني أنهما متطابقتان.

وإذا قلنا "سلوكية" فإننا نعني "بافلوفية"... ونستذكر تجربة هذا العالم مع كلبه الذي كان يعطيه شريحة لحم ويصحبها صوت جرس ثم يكرر له هذا الفعل عدة مرات إلى أن يعتاد الكلب فيكتسب سلوكا آليا مشروطا بحيث أنه يصبح ينتظر الطعام كلما سمع صوت الجرس وعلامة ذلك سيلان اللعاب من فمه. فالاستجابة المتمثلة في سيلان اللعاب مشروطة بمنبه خارجي صورته الجرس، يمكن أن يسببه منبه مواز يقوم مقام المنبه الأصلي، مثل أن يسيل اللعاب نتيجة لسماع الصوت الذي يحدثه الجرس بدلا من سيلانه نتيجة لرؤية اللحم، فرؤية اللحم هي "الموضوع/ المنبه" وسيلان اللعاب هو اللقطة الاستجابية وما نعهده إشارة في هذا المثال هو أخذ صوت الجرس مكان الرؤية المباشرة أو اشمّ المباشر، كمنبه نائب عن المنبه الأصلي... ومما يمكن أن نستنتجه بالموازاة – واستنادا إلى فكرة استحالة نيابة الإشارة عن المنبه التي سبق الحديث عنها- هو أن الفرق في الاستجابة يكون على مستوى درجة شبيه الاستجابة، ولا يتعلق بطبيعة الاستجابة. ورغم أن جورج مونان يرى أفكار موريس جزئية التناول وغير شاملة لنواحي الإشارة⁽¹⁾ ... إلا أن هذا الرأي المستند إلى النظرية السلوكية في تفسيره لطبيعة الإشارة يبقى محتفظا بقيمة معينة ويبقى ذا دور هام في إعطائنا فكرة ما حول مفهوم الإشارة...

(1) G. Mounin- op. cit- p : 57.

المحاضرة الثانية: الأدب وتحليل الخطاب

- سيميائية الخطاب اللساني:

يرتبط الخطاب في الفكر السيميائي بعملية التلفظ⁽¹⁾، فكل خطاب يتطلب كشرط سابق عملية تلفظ ما، ولا يمكننا تمثيل الخطاب دون استحضار فكرة التلفظ. وعلى مستوى التلفظ، طوّر السيميائيون آراء اللسانيين الذين كانوا يعدون التلفظ والملفوظ شيئاً واحداً بحكم اشتراكهما في الفعل وفي الماهية اللسانية التي من أجلها كان [والتي هي إنتاج خطاب]. إذ (يجب أن نفرق بين التلفظ نفسه، وموضوعه، المادة المتلفظ بها)⁽²⁾... فالعلاقة بينهما هي علاقة المسبب بنتيجته أو ما يتسبب عنه، ففعل التلفظ هو إحداث ملفوظ ما، الشيء يمكن أن تقسم من خلاله العملية على أن التلفظ عملية (فيزيائية/ فيزيولوجية) في حين أن الملفوظ نتاج لغوي بحث.

يقول بينفنيست أن التلفظ (هو فعل تشغيل اللغة بواسطة نشاط فردي)⁽³⁾. ومن غريب الصدف أن هذا التعريف لعملية التلفظ هو نفسه التعريف الذي يعرف به مؤلفو قاموس اللسانيات الخطاب، إذ يقولون أن الخطاب (هو اللغة حينما تشغل)⁽⁴⁾ أو (هو اللغة تحت تحكم المتكلم)⁽⁵⁾.

وبحكم أن اللفظ هدفه الأساسي إعطاء معنى، وبحكم كون المعنى لا تتكامل أجزاؤه إلا من خلال شبكة من العلاقات تنشأ من خلال انضمام الكلمات بعضها إلى بعض [ذلك أن الكلمة لا

(1) Morely Dalila et autres : introduction à la sémiologie – D.R.U- Alger- p : 38.

(2) Jakson Raman : Essais de linguistique général, t :1- paris- (minuit)- 1996- p :181.

أخذاً (عن المصدر السابق - ص: 38)

(3) Beneniste, Emile : problème de linguistique général, t :2 – Paris, Gallimard, 1974, p :80

أخذاً عن المصدر نفسه – ص: 38.

(4), (5) Dict. linguistique- p :156.

تحمل معنى تاما بمفردها، والمعاني الجزئية الساكنة جوف الكلمات في حاجة إلى متممات تجدها ساكنة جوف كلمة أخرى أو كلمات أخرى]... من قبل...
- حافلة-

فهذه كلمة تحمل صورة مبهمة عسير فهمها [والفهم هو التحديد أساسا]، ... الشيء الذي يتطلب تقييدا [حسب مصطلح النحاة والمناطق] أو تحديدا كأن نقول:
- حافلة جميلة تسير نحو المحطة-

فالصورة المبهمة التي نتلفظ بها تزداد الإشارات إلى جوانبها وتتضح أكثر فأكثر، إذ كنا نطرح أسئلة كثيرة حينما تلقينا في المرة الأولى الإشارة المعزولة الدالة على (الحافلة) لا غير، فلا نعرف لها لونا ومحيطا ولا فضاء زمنيا ولا مصدرا ولا وجهة ولا صفة ولا حالا (من حيث الحركة والسكون)... الخ... أما حينما نقرأ الجملة (حافلة جميلة تسير نحو المحطة) فإن نصف هذه الأسئلة يصبح لا داعي لطرحه...

ونعود الآن، وقد رأينا أن الجملة وحدة أساسية للمعنى التام (ولو حرفيا)، لنقرأ مع قاموس اللسانيات تعريف الخطاب الموسع أكثر:

" المصطلح "خطاب" يشير على كل ملفوظ أعلى من الجملة، بحيث ينظر إليه من زاوية نظر قوانين تسلسل المجموعات الجمالية"(1)

والذي يهمننا من هذا التعريف هو العنصر الوارد تحته خط (والخط من اقتراحنا)، وهو أن الملفوظ الذي اشترطنا فيه أن يعلو إلى درجة الجملة، يشترط فيه السيميائيون أكثر من ذلك، وهو أن يعلو إلى درجة ما فوق الجملة، بحيث يصبح التعامل معه مثل التعامل مع السلاسل والتتاليات الجمالية [وهذا هو الذي يشكل - على مستوى الخطاب المكتوب- فقرات تشكل بدورها نصوصا]...ومن المعطيات المميزة للخطاب أيضا ما يقوله إيميل بنفنيست عند التفرقة بين (الخطاب) و(الحكاية)، ويجب قبل كل شيء- أن تتفق على فكرة أن اللسانيات حددت مجال الخطاب في الملفوظات التي - وبعبارة تجتمع في جسم واحد- تكون لديها قابلية الدراسة(2)... والدراسة هنا لا تقتصر على الجانب اللساني اللغوي، إذ أن الملفوظات التي نتحدث عنها تصدر عن متلفظ معين، ذي خصائص نفسية تفتح مجالا خصباً أمام التحليل النفسي، وهو - أي المتلفظ المفترض سابقا- يعيش ضمن شبكة اجتماعية مستقلة عن غيرها من الشبكات، وهذا يمنح أمام

(1) Dict. de linguistique- p : 156.

(2).op.cit- p : 157.

السوسيولوجيا مجالا آخر... ولن نطيل في تعداد الجوانب التي يمكنها أن تتعلق بالمادة الدراسية الخصبة التي يمنحنا إياها الخطاب المذكور...

ونعود الآن إلى فكرة بنفنيست عن التفرقة بين طرفي الثنائية (خطاب/ حكاية) (discours/ récit) ... إذ يقول أنه (أكد أن كل "تلفظ" في الواقع، سواء كان مكتوبا أم مقولا، هو نتيجة عملية "تلفظ". غير أن بعض الملفوظات تبدو كأنها من دون صلة تصلها بالتلفظ الذي هي نتيجة له: نقول عن هذه الملفوظات أنها "حكاية"، والبعض الآخر من الملفوظات تبدو، عكس ذلك، على صلة بتلفظ ما: وهذا ما نسميه: "الخطاب". فالخطاب هو هذا: إنه تجلّي التلفظ على مستوى الملفوظ)⁽³⁾ فالحكاية- على ضوء ما سبق- لا تحيل على قائلها أو حاكيتها، في حين أن الخطاب بالمعنى اللساني العام، يحيل على المتلفظ به.

غير أن بعض اللسانيين حديثا يعترضون على هذا الرأي الذي يبدو لأول وهلة صحيحا صائبا دقيقا، ويقوم اعتراضهم على أساس شذوذ رأي إيميل بنفنيست القائل بكون كل تلفظ لا يحيل على المتلفظ يعدّ (حكاية) ويعطون كمثال على فساد هذا الرأي فكرة أن (أنواعا أخرى من الخطاب – مثل الخطاب التربوي- تتميز بغياب المتلفظ- مثل: الماء يغلي عند 100° م)⁽⁴⁾.

ونترك الآن الفكرة التي اقترحها بنفنيست لنعود إلى النظر فيما جاءت به السيميائية كمشروع لمقاربة مفهوماتية (conceptuelle) للخطاب فالمشروع (السيميولوجي الذي يرمي من وجهة نظر "هينو" إلى تأسيس وعي بنيوي للاستقراء) لا يغير المفاهيم البنيوية تماما بحكم كون السيميائية وليدة البنيوية⁽¹⁾... لهذا فالفرق بين الخطاب من وجهة نظر البنيويين كما رأينا، على أساس كونه تراكما للدلالات بعضها فوق بعض⁽³⁾، وبين السيميائية التي تعدّه شبكة متفاعلة من المواد المتوصغة بعضها إلى جانب البعض الآخر بحكم علائق هي نفسها محل التفاعل، ... الفرق إذن واضح بيّن ظاهر، ويكمن في كون المفهوم البنيوي تراكميا والثاني تفاعليا.

والمفهوم السيميائي هو الذي يعبر عنه فيدود قائلا عن دور السيميائية على مستوى الخطاب أنها (محاولة لفك رموز الخطاب مع الاهتمام بتجلية النص من حيث كونه مولدا لمجموع

(3) Dalila Morsly- op .cit- p :157

Voir aussi

- Dict. de linguistique – p : 157.

(4) Dict. de linguistique- p : 157.

(1) فيدود عبد القادر: دلالية النص الأدبي- ديوان المطبوعات الجامعية- وهران- الجزائر - 1993 - ط1 - ص: 7.

Larousse encyclopedique- op cit- 4 : 18- p : 10987.

(3) ع.م. مرتاض: (أ-ي)- ص: 22

من العلاقات والرموز ذات مدلولات لا يمكن الكشف عنها إلا من خلال العلاقات الجدلية القائمة بينها، فالطبيعة الحقيقية للأشياء لا تكمن في الأشياء نفسها بل في العلاقات التي تكونها، ثم ندركها بين الأشياء. ومع ذلك ما يزال المشروع السيميولوجي رهين المغامرة (4).

و قد تعمدنا إيراد هذه الملاحظة التي أوردتها غريماس من قبل لكي نذكر بهذا الأمر، أما ما يفيدنا هنا فهو فكرة كون العلاقات هي محل الدراسة السيميائية، إذ أن العمل السيميائي على مستوى الأشياء ومكانتها اللغوية (الكلمات) لا يعني شيئاً بحيث تعتمد السيميائية على البحث والكشف عن الإشارات المتضمنة في الشيء حينما يكون في علاقة لفاعلية مع شيء آخر، وهذا ما نستنتجه بسهولة حينما نستحضر فكرة أن الكلمات (أي مكافئات الأشياء على مستوى الخطاب، الذي هو موضوع حديثنا) لا تحمل رموزاً وإشارات وسمات خصبة، ذلك أن إطلالة بسيطة على أي قاموس يمكنها أن تفهمنا ثلاثة أرباع الإشارات المتضمنة في الكلمة (75%)، ويبقى الربع الأخير رهيناً لدى ظروف أخرى خارجة عن الكلمة ... هذا عن الإشارات المتضمنة في الكلمة [=في الشيء]، أما عن الإشارات المتضمنة في العلاقات التفاعلية بين الكلمات فمجال خصب جداً بحيث أن أبسط العلاقات من شأنها أن تحيلنا على إشارات خصبة فمثلاً إذا قلنا:

- جاء سعيد

و- سعيد جاء

فالمعنى المتضمن في (سعيد) هو الإحالة على شخص معين يكون الباث والمتلقي على علم بهويته، والمعنى المتضمن في (جاء) هو مجموع الحركات أو الحالات أو الظروف المشيرة إلى فعل مجيء الذي نستطيع فهمه من خلال معناه الجامد غير النامي المحصور المسجون داخل القاموس... أما التركيب العلائقي (جاء سعيد) فيمكنه إخبارنا بأشياء كثيرة، فإن كانت الجملة قد قبلت دون سؤال مطروح فمعناها يمكن أن يكون تخويفاً (حينما يكون سعيد آتياً للانتقام من المتلقي مثلاً) أو يكون تبشيراً (إذا كان سعيد آتياً بما فيه خير وبركة وسعادة) أو يكون خبراً مشئوماً (إذا كان سعيد آتياً ليحدث له أو منه شيء مشئوم) ... الخ. كل هذا وغيره كثير كثير من خلال علاقة المتوضع فقط، بمعنى علاقة الترابط بين (سعيد) و(المجيء)، فإذا طرحنا احتمالات أخرى مثل أن يكون التركيب (جاء سعيد) أو (سعيد جاء) إجابة على سؤال فالإمكانات تصبح أكثر والإشارات أوسع وأخصب... وإذا نظرنا إلى مسألة التقديم والتأخير، والمداول المرتبط في البلاغة بمسألة التقديم والتأخير من الاهتمام بالمقدم أكثر من المقدم عليه فالإمكانات أكثر... الخ.

(4) فيدوح-م.م. س- ص: 7.

والمسألة واضحة دون أن نورد هذه الاحتمالات أو جزءا منها [لأن إيرادها كلها مستحيل !].

2- سيميائية الخطاب الأدبي:

وبعد أن فصلنا القول فيما يتعلق بالخطاب نأتي إلى الخطاب الأدبي أو ما يصطلح على تسميته بالنص الأدبي...

وأول ما يلتفت إليه السيميائيون، عائدتين إلى الخطاب، عند البحث عن أدبية نص ما هو حركة الوعي المعرفي. يقول عبد القادر فيدوح: (النص تفاعل معرفي قبل أن يكون بنية لغوية تندمج فيه دينامية الاستجابة المرئية في طبقاتها السطحية ضمن ما يحتويه الموجود الملموس مع روح التأمل الداخلي فيه، قصد إدراك مخيلاته المخفية ومن خلال ذلك تأتي القراءة الحديثة لمحاولة استجلاب أسرارهِ مع ورود منجزاته الاحتمالية إلى تصور تأملي تتفق فيه الذات مع الآخر وفق مبادئ مشتركة على الرغم من تعدد أنظمة الدلالة التي تحتويه من حيث كونه فضاء معرفيا تتداخل فيه الذات المبدعة مع السياق الذي قيلت فيه وتنحل في الحدث أو الهاجس الذي دفعها إلى القول وما يتولد عن ذلك من علاقات تفاعلية وحركية تمثل المحرك الأساسي في حركة النص وانسجامه وسيرورته وإذا كان المبدع لا يكتب ما يقول فإننا لا نقرأ ما يكتب)⁽¹⁾.

والمسألة الأولى المطروحة في هذا النص هي التي أشرنا إليها في بداية الكلام؛ أي حركة الوعي المعرفي. وهذا الوعي لا يعني المعرفة الإيديولوجية، بل مجرد المعرفة الفنية، من باب اشتغال كل نشاط إبداعي على قواعد يجب حصرها في دائرة الوعي الإبداعية التي يصدر النص الأدبي وهي في كامل نشاطها...

أي أن الأديب لا يصدر في إنتاجه النص عن عمل غير واع.

ثم يتعرض صاحب النص إلى مسألة رد فعل المتلقي إزاء الرسالة (العمل الأدبي ككل، وليس المضمون فقط كما درج العوام على فهم مصطلح "الرسالة")، فهو يتحدث عن استجابة مسببة مثل تلك التي عالجناها أثناء الحديث عن المفهوم السلوكي للإشارة. وهذه المدركات المحسوسة (أو المرئية حسبما يقول صاحب النص حاصرا التلقي في حاسة النظر على أساس

(1) المصدر السابق - ص: 33.

كونها أهم الحواس المساعدة على تمثيل نص أدبي ما (...)، هذه المدركات الحسية إذن في تفاعل مع محتوى التأمل، والعلاقة التي لا يوضحها صاحب النص هي علاقة إسقاط، فالصورة المسموعة (أثناء إلقاء النص الأدبي) أو المقروءة أثناء القراءة طبعاً لها مكافئها الذهني الذي يستفزه النص الأدبي، وهذا المكافئ الذهني يرتبط (ذهنياً دائماً) بمكافئ ذهني آخر لصورة سمعية أو بصرية أخرى هي جزء آخر من التركيب اللغوي (الأدبي)...ومن هنا نكون قد عدنا إلى فكرة التفاعلات الحاصلة على المستوى العلائقي للنص بين الكلمات التي تنشئ هذه العلاقات أثناء انضمام بعضها إلى البعض الآخر.

ومن المهم جداً أن صاحب النص يتحدث عن الثنائية (كاتب/ قارئ)، إذ يقول عن التصور التأملي الصادر إن تلقي الصور المحسوسة يكون مشتركاً بين " الذات الناصة" و"الآخر"، وليس ما يسميه هو (التعددية الدلالية) أو (تعددية الأنظمة الدلالية) عائقاً في سبيل الانسجام الذي يجب أن يحصل على مستوى الثنائية (كاتب/ قارئ)، وذلك أن ركني الثنائية أو حدّيها متفقان على مبدأ أن النص الأدبي يشتمل على منعرجات اجتماعية للخلاصة الدلالية.

كما يشير صاحب النص إلى ثنائية أخرى (الكاتب/ السياق)، والسياق هنا كلمة واسعة جداً، بحيث يكون ظرفاً اجتماعياً أو نفسياً أو تقليعة سياسية أو أي هاجس فردي من ذات الأديب أو من ذات غيرها، كما يمكن أن يكون السياق هما ميتافيزيقيا أو فلسفياً... فالسياق، إذن، هو أي ظرف خارجي محيط بالشبكة اللغوية المسماة هيكل النص الأدبي.

أما العبارة الختامية في النص (وإذا كان المبدع لا يكتب ما يقول فإننا لا نقرأ ما يكتب)... فمعناها إجمالي يلخص ما تحدثنا عنه، أي أن ما يكتبه المبدع ليس سوى مفتاح ندخل بواسطته غرفة واسعة هي نتاج العلاقات والسياسات والخلفيات المحيطة بالنص، فما يريد المبدع قوله لا يكتبه، وتباعاً لذلك، نقرأ نحن ما يكتبه فنفهم أعظم من ذلك بكثير، أي نقرأ شيئاً آخر تختلف عن الفعل السطحي (القراءة/ التلقي المباشر)...

وتتجلى الإضافات السيميائية إلى نظرية الخطاب والخطاب الأدبي من خلال المقارنة مع أعمال اللسانيين، إذ أن الاهتمام باللغة كأداة للتبليغ أدى باللسانيين إلى إهمال ذلك الركاب اللغوي المنظم (أو المترام - حسب مصطلح البنيويين-) الذي اصطلح حديثاً على تسميته (الخطاب) ... أي أن اللسانيين اهتموا بالجملة اللغوية كتركيب هدفه التبليغ وملايسات التبليغ... ولكن هذا العلم لم يهتم بركن (الرسالة) من التبليغ وإمكانية تشكل هذه الرسالة على شكل خطاب له خلفيات فنية

وتراكمات فنية⁽¹⁾ لها أهداف أخرى غير الصدور عن باث والمروور عبر قناة إلى متلق... لهذا وجدت سيميائية الخطاب، وتطورت بتقريب أحداث متجانسة وقابلة للمقارنة من جهة... ومن جهة أخرى بتقريب الوحدات اللغوية والتعامل معها⁽²⁾... وهذا الكلام ينطبق في مفهوم غريماس على الخطاب الأدبي مثلما ينطبق على الخطاب عموما لأن ما تطمح إليه السيميائية حسب غريماس دائما هو البحث عن سبيل لدراسة الخطاب عموما بحيث تنطبق قوانين هذه الدراسة وينطبق منهجها على نصوص القانون والفلسفة (أي النصوص غير المتخيلة) تماما مثلما تنطبق على النصوص الأدبية المتخيلة⁽³⁾...).

ويتعرض غريماس إلى مسألة العلاقات على مستوى الجملة، بحيث يرى أن التراكمات المذكورة آنفا بحاجة هي نفسها إلى تفكيك وإلقاء ضوء كاشف عليها، وما يراه سبيلا لذلك هو دراسة العلاقات التحويلية المولدة لأشكال جديدة من التعبير، ولمضامين مختلفة تختلف باختلاف الأداء على مستوى الإشارة⁽¹⁾.

ويتحدث غريماس عن الخلفية الفكرية التاريخية لهذه الدراسات، فيشير إلى أن التطبيقات السيميائية على النصوص السردية (أو الحكائية) التي هي في الأصل حكايات شفوية ذات طابع عالمي - وهذا يؤكد عراققتها - قد أعطت نتائج أولية أحدثت ما يشبه الزلزال على مستوى الأدب المكتوب الراقى... بل وأنتجت هلهلات إيديولوجية مفاهيمية عميقة... [ولا نستطيع في هذا السياق ألا نتذكر كتاب "أساطوريات mythologies" لرولات بارت]... الشيء الذي جعل السيمياء هي المجال الأنشطة للمجادلات حول الحداثة).

وقد اكتشفت التطبيقات السيميائية على الخطاب مجموعة من مستويات التحليل:

- المستوى العميق: وهو بنيات معقدة قابلة للتحليل بسبب عرضها وتتميز (بعمليات دلالية منطقية تتعرض لتحولات تحدث فيها)⁽²⁾... وهذا ما يتلاءم ولو تعريفا وتقريبا مع ما يسمى تقليديا بالخلفية المعرفية والإيديولوجية - التي تشكل، حسب المفاهيم القديمة دائما، القاعدة المضمونية.
- المستوى النحوي الظاهري: وهو الذي يدرس البنية التركيبية للخطاب.

(1) Larousse encyclopedique- op.cit- ... :18- p :10990.

(2) op cit- p : 10990.

(3) op cit- p : 10990.

(1) op cit- p : 10990.

(2) op cit- p : 10990.

- المستوى التصويري: وهو المكافئ المحسوس للمستوى التركيبي إذ تجد التراكيب المكافئ الصوري لها فتصبح التراكيب النحوية دالة على صور أو تراكيب صورية محسوسة [وهذا هو مفهوم الإسقاط الذي ذكرناه أعلاه].

- المستوى النصي: (بفصله يلعب العديد من المظاهر البنيوية دوره في لغة طبيعية أو أخرى)⁽³⁾. ويرى غريماس أن فصل هذه المستويات بعضها عن بعض هو ما يسمح بنظرة شبه موضوعية واستقلالية إلى الخطاب، بل ويسمح لنا بتطبيق هذه النتائج نفسها على النصوص التصويرية (القصص، الشعر، ...) والنصوص غير التصويرية (القانون الفلسفة، الاجتماع...)، والتوصل إلى نتائج هامة في الحالتين.

ويخلص غريماس إلى القول بأن الاستقطاب في هذه المستويات أي التفرقة والفصل بينها وجعلها مستقلة، كل منها في قطب- حسب تعبيره- هو ما يسمح بعد أية مجموعة من السلاسل التركيبية التبليغية (أي الإشارية) نصوصا هي أيضا ... (مثل الطقوس العقيدية، برامج السيرك...)... بل وتذهب السيمياء إلى دراسة هذه الأشكال الإشارية حسب هذه التقسيمات تحت المبدأ العام للدراسة السيميائية للخطاب، ... يقول غريماس عن ذلك (إن تحطيم البنيات العامة في مجال مرموق من مجالات البحث، هو نفسه قاعدة التلفظ الداخلي لسيمياء موحدة رغم تعدد مجالات العمل والتطبيق)⁽¹⁾.

ورغم أن هذا الكلام الذي سقنا بعضه ولخصنا البعض الآخر مع الشرح والتعليق ينطبق على الخطاب عموما ويشتمل ضمن ما يشتمل عليه على سبيل بحث ومدارسة الخطاب الأدبي، ... رغم هذا أثرنا أن نتركه إلى الآن لأننا لو أردناه ضمن الحديث المخصص لنظرية الخطاب عند البنيويين والسيمائيين لدخلنا زمرة الخطاب الأدبي من حيث لا نعلم، وقبل أوانه المحدد له من عمر هذه الدراسة ... أما الآن فنحن نلاحظ دون عسر الفرق بين النظرة التي نطق عبد القادر فيدوح معبرا عنها، وبين هذه النظرة العلمية الصارمة التي ينطلق غريماس منها... ذلك أن هذا الأخير يريد للنص الأدبي أن يدخل ضمن الزمرة العاملة المسماة بالخطاب اللساني، أو الخطاب باختصار... فيتميز بمميزاته في دائرة ضيقة، بحيث لا نصطدم بهذه المميزات حينما نهم بعملية الدراسة والتحليل، إذ أن هذه الأخيرة تستقي مادتها التي تعمل عليها انطلاقا من خصائص تتمركز وسط دائرة أوسع من خصائص النص أو الخطاب الأدبي، تلك هي خصائص الخطاب عموما

⁽³⁾ op cit- p : 10990.

⁽¹⁾ op cit- p : 10990.

سواء كان أدبيا (تصويريا، حسب المصطلح الذي يستعمله غريماس) أو غير أدبي (غير تصويري)، كالنصوص القانونية والدينية والعلمية – حسبما أسلفنا القول.

المحاضرة الثالثة

تحليل الخطاب على يدي أعلام الدراسات الثقافية

- عتبات مفاهيمية

تعد الدراسات الثقافية مجالا مبتكرا متعدد الاختصاصات للبحث والنقد والتدريس، يدرس الطرق التي تولد بها "الثقافة" والطرق التي تحوّل من خلالها الخبرات الفردية والحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية و ترسم عبرها خرائط السلطة. يستكشف البحث والتدريس في الدراسات الثقافية العلاقات بين الثقافة التي تفهم على أنها أنشطة تعبيرية رمزية ورُمرية، و كذلك مفهوم الثقافات التي تتقدم أمامنا على أنها طرق مميزة للحياة. وتعتمد الدراسات الثقافية باستعمال تشكيلة بديعة من نقاط القوة في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية على الأساليب والنظريات المنتشرة في ميادين مثل الدراسات الأدبية، وعلم الاجتماع، ودراسات الاتصالات، والتاريخ، والأنثروبولوجيا الثقافية، والاقتصاد. ثم تركز على الاشتغال عبر الحدود بين هذه المجالات. الدراسات الثقافية تعالج أسئلة ومشاكل جديدة مما يطرأ في العالم اليوم. وبدلا من البحث عن الإجابات التي ستستمر طوال الوقت، تقوم الدراسات الثقافية بتطوير أدوات مرنة تتكيف مع هذا العالم المتغير بسرعة.

الدراسات الثقافية لا تبتعد عن كونها حقلا عابرا للتخصصات يهدف إلى إلقاء الضوء على الممارسات الثقافية والشكل الخفي الذي تملكه المقولات الثقافية لكي تندرج في أشكال من الممارسة الإيديولوجية والسياسية غير البريئة التي تركز عليها فترات تاريخية لكي تمارس ابعء الأشياء التي يمكنها أن ترتبط بمعنى الثقافة الذي يحيل على النبل والإنسانية والتعالى والروح المنفتحة على العالم لا على الاستعمار والعبودية وهضم حقوق الآخرين والرغبة الجامحة في الهيمنة وفي محق الأقليات... وأشكال أخرى من الشقاء البشري والشطط السياسي الذي كثيرا ما بررته الثقافة.

من هذه الزاوية يتحول حقل الدراسات الثقافية إلى ساحة نظرية هدفها كسر مقولات وتعويضها بمقولات أخرى. في عمليات ضخ نظريّ قوية تنتهي إلى تجديد وعينا بالعالم، ونفض غبار اليقين الزائف الذي لا ركيّزة له إلا الزمن والتعود والتكرار الذي علم الدمار – بدلا من تعليم الحمار-. تركز الدراسات الثقافية لفهم الممارسات النصية التي من خلالها تعمل المراحل والمجتمعات، والمجموعات المتنوعة المتشكلة والمعتمة داخلها، على خلق توافق وهمي مع التاريخ والحياة المجتمعية، وتحديات المستقبل، وهو الملمح الذي ينتج من خلاله الشكل الخاص لتعامل النقد الثقافي مع النصوص التي يعمل عليها. وتنطلق الدراسات الثقافية من جملة من أسئلة يبدو أن المعارف التي تتقاطع معها هذه الدراسات لم تتعود طرحها، فهي مقارنة متعددة التخصصات والمناهج والإجراءات للظاهرة الحياتية – كما أسلفنا- هدفها خلق منظورات جديدة صوب موضوعات مألوفة صار عسيرا أن نزعزعها أو نخلق إزاءها ادعاءات جديدة للحقيقة. أطر نظرية وممارسات ثقافية ونصية هدفها الرئيس هو تقصي الطريق المعقدة التي تتشكل وتتحول من خلالها التجارب الفردية والصلات الجماعية، وكذلك مظاهر الحياة اليومية في سطحيّتها المخادعة، وكل الموضوعات والخبرات والتمثيلات التي درجنا على تسميتها "الثقافة"، والتي يعد النص الأدبي احد ألمع تجلياتها، وذلك في إطار من وصف جينيالوجيا الظواهر من جهة وفضح صلات الهيمنة التي تتحكم فيها أو تنتج عنها من جهة أخرى.

إنه حقل وليد سياق تاريخي معطى. سياق وجد نفسه الوريث التاريخي لحربين كونيتين مجنونتين، دون إهمال الدور الذي لعبه السياق مابعد الكولونيالي وريث الجانب المشرق من الفكر الماركسي الأفل، وكذا طرائق نظر وعمل ما بعد البنيوية الوريثة الوفية والجسورة للبنيوية، والفلسفة التحليلية وريثة التقاليد التجريبية والوضعية، والتداولية الجديدة وريثة البراغماتية، والاثنوغرافيا وريثة العين الأنثروبولوجية، مع قابلية امتصاص كبيرة للحساسيات العلمية المنتشرة بشكل عسير على الملّة تحت رايات من قبيل الحداثة، مابعد الماركسية، النظرية الفرنسية، سيميائيات الثقافة، الاقتصاد السياسي، التاريخ السياسي، نقد المشروع التنويري، مدارس فرانفورت، باريس، لندن، بيل، ... وكلها آفاق معرفية تجتمع عند النقطة التي اجترحها الثلاثي الفلسفي الهام: كانط/هيغل/ماركس؛ الثلاثي الذي ردم الهوة الكلاسيكية بين المعنى الفلسفي وبين اجهزة السلطة. فصار ما يقال في الجامعة في الفضاء الأكاديمي على صلة وطيدة بما يقال في المجالس السياسية والاقتصادية، وبهذا كُشف لأول مرة عن الحبل السري الكامن بين قاعة الدرس في الرحم الأكاديمي وبين المجالس المنتخبة او المعينة التي تمثل جمهور الناس وتتخذ القرارات السياسية بدلا عنهم.

هذا الحبل السري هو أهم ما يدور حوله التركيز في أفق الدراسات الثقافية الذي يختصر مشروعه في عناوين صارت منذ قرابة الأربعين سنة من كلاسيكيات الدروس الجامعية : ما علاقة الخطاب بالعالم؟ كيف تعمل النصوص على توجيه دفة العالم؟ كيف تتعامل أجهزة السلطة مع الفضاء الأكاديمي الذي يتفاعل معها؟ ما علاقات التقاطع الخفية بين السلطة والحقيقة (المعنى الذي تم ترسيمه مؤسساتيا)؟ ما حقيقة النسخ العديدة للحقيقة التي ينتجها التاريخ؟ كيف تتصارع وكيف تقض نزاعاتها؟ ما هي آليات مراجعة قيم طبقة أو مرحلة معينة؟ وما حقيقة وشكل الجدل القائم بين الجهاز السياسي والجهاز الفكري اللذين يعتملان ويشتغلان في الحقبة نفسها؟

من المنتج الثقافي إلى العلامة الثقافية

اتخذت المدرسة الأنغلوسكسونية ذات الريادة في هذا الميدان عنوان الثقافة بسبب ميل انغلوسكسوني صوب الإيمان بدور "نمط معين" من الثقافة في المحافظة على نظام قائم معين. فعنوان الثقافة يتجاوز في عرهم المعرفة صوب الممارسة، وينزلق بيسر من القيمي صوب السلوكي؛ أي من الوجود الاستيطيقي المحض صوب البعد الايطيقي المورط سياسيا. لهذا نجد أولى محطات هذا الحقل تمثلت في مراجعة المدونة الجمالية (أو النقدية) للأدب في المنهاج الأكاديمي الانجليزي، إذ أشار ريموند ويليمز مبكرا إلى محدودية نظام الحكم الجمالي على النصوص "المرسمة أو الكلاسيكية"، وأشار إلى أن هذه النصوص تمثل دعوات للتفكير العميق والجدي في المعنى الحالي للثقافة، وأن ثقافة انجبت النصوص وأنجبتنا أو أنجبناها قد تتجلى بجلاء من خلال زوايا نظرنا صوبها، وهي نظرة ستجد لدى لوي ألتوسير ثم فوكو كل المسميات الواصفة لها والأطر النظرية التي توضع فيها هذه النصوص التي لا يمكن فهمها إلا على أساس كونها خطابات؛ فيها إنتاج نصوص، وتوجيهها، واستغلالها ايدولوجيا وسياسيا لأجل إنتاج نظام الهيمنة الذي طال تأمل أنطونيو غرامشي فيه. هيمنة يرى فوكو أنها تكمن في فعل سلطة يملك طابعا خطابيا، ولا يمكن تمثله إلا ذائبا ذوبانا تاما في بوتقة الممارسات الخطابية. إذ إن صراع السلطة لا يتم إلا داخل الخطاب كما يقول فوكو.

إن النظر صوب الثقافة كميدان لمعينة كل معاني الحقيقة موروث عن مدرسة فرنكفورت. فقد دار في السنوات القليلة السابقة لبروز هذا السياق المعرفي جدل خصب بين تيودور ادورنو وصديقه اللود وولتر بنيامين حول موقع الثقافة انتهى بهما إلى ثنائية قطبية استفادت منها الدراسات الثقافية: الإيمان بقدرة الثقافة على تشكيل مرآة لرؤية الحياة والتاريخ، لا لتشكيل وهم رومانسي حولهما، أو

تحميلهما بأحكام مستعادة جيلا بعد جيل تدعي طوباوية في الأحكام فحسب، بل للعمل على كشف الأنساق التحتية (وهو مصطلح حبيب على قلوب رواد هذا الأفق) لهذه المنتجات الثقافية، إذ لا توجد وثيقة ترتفع بالمعنى الحضاري إلا وهي وثيقة تتدنى إلى غياهب الهمجية كما كان يقول بنيامين. وبناء على هذه الرؤى، يصبح يسيرا النظر صوب الدراسات الثقافية على أنها بناء نظري يمكن المعلمين والدارسين من الانفتاح على مختلف المعارف والعلوم والتخصصات لأجل تشكيل أحكام وأوصاف حول العالم الذي نعيش فيه. كما يمكننا فهم الطبيعة المتشظية في مختلف المعارف لهذا الحقل الذي ينطلق من وهم تسمية جامعة لكي يصبح بابا ينفتح ولا ينغلق أبدا؛ لأن خلفه بابا آخر... وهكذا... إلى غاية نفاذ الأشياء ومسمياتها كلها.

يقترح علينا هذا الأفق المعرفي ترسيمته الكرونولوجية الملزمة فتظهر لنا أعمال بباء أولين هم فرديناند دو سوسير و.ر.م. ليفيس وفرويد وماركس وفريدريش إنغلز، ثم أعلام النظرية الفرنسية الكبار: كلود ليفي شتراوس وميشال فوكو وجاك ديريدا وبيار بورديو ثم لوي آلطوسير وجيل دولوز ورولان بارطوجاك لاكان. . . وبسرعة نعبر الأبوة المباشرة والمعلن عنها أثناء التأريخ المدرسي لكل من ريموند ويليامز وستيوارت هال بدءا من منتصف ستينيات القرن العشرين وانتهاء بما لا حد له من الأعلام ومن الأعمال: بول غيلروي- ديك هيدج- إدورد سعيد- طوني بينيت- هومي بهاها- أنجيلا ماكروبي- غاياتري سبيفاك- جوليا كريستيفا- أنطونيو نيغري- زيغمونت باومان- كورنل ويست- إرنستو لاكلو- شانطال موف- فرانسوا ليوطار-ريتشارد هوغارت- دونا هاراواي- بيل هوكس- فريديريك جيمسن- ساره ميلز- جوناثان كالر- لاورنس غروسبيرغ- انطوني غيدنز- بول غيلروي- كليفور غيرتز... والغائب عن هذه القائمة أكثر من الحاضر في كنفها.

وهذا ما يجعل الحقل يشبه أن يكون علبة أدوات قابلة جميعها للاستعمال حسب الحاجة المنهجية الطارئة؛ علبة أدوات تضم حقولا معرفية وفلسفية شديدة التنافر من قبيل: الإثنوغرافيا، النسوية، الماركسية، فلسفة اللغة، الاقتصاد السياسي، نظرية ما بعد الاستعمار، ما بعد الماركسية، ما بعد البنيوية، التداولية، التحليل النفسي، البنيوية، السيميائية، النسوية ودراسات الجندر، التحليل النصوي، البلاغة الجديدة، الهيرمينوطيقا، نظرية الاتصال. . . وتبدو قائمة مفتوحة جوهريا. . . وينتمي إليها عشرات الباحثين ربما أشهرهم في الضاحية العربية إدورد سعيد وفريديريك جيمسن وهومي بابا بفضل الترجمات الكثيرة لأعمالهم.

من المثير للانتباه ان نشير إلى سياق آخر يضاهي في أهميته سياق شيوع الفكر الماركسي في مرحلة ما بعد الحرب الكونية الثانية ؛ أقصد السياق ما بعد الكولونيالي . فهو سياق استجلبه نظام معقد

وخطير من النصوص التي بررت لأوروبا الغالبة فعل ما فعلته. فغالبا ما تأتينا النصوص ملغمة باليقين القديم الملازم لها – كما أسلفنا- لتشكل حولنا سياجا معقدا اسمه: الميتافيزيقا. ليست ميتافيزيقا أفلاطون وأرسطو وسبينوزا التي تحيل على اللامرئي الديني بل الميتافيزيقا بالمعنى الديردي التي تحيل على مسلمات ذات تقاليد قوية يصعب جرّها إلى دائرة المراجعة، لتصبح شبيهة باليقين الديني الذي غالبا ما يتحول على حقيقة تتموقع فوق المعاينة والمراجعة.

يعمل أفق الدراسات الثقافية على كسر هذه الادعاءات الإبستمولوجية التي تسكن قوقعة الجوهرائية في غير حاجة إلى التفكير في تفكيكها أو البحث عن جذورها... فهي ذات وجود إلهي أو شبه إلهي لا يحتاج إلى جذور ولا داعي للبحث عن فروعه. نزعة الحقائق في العالم الغربي نزعة ماهوية وأصولية نتج عنها عنف الحركات الاستعمارية التي جاء السياق الحداثي ثم السياق مابعد الحداثي فدعيا إلى إعادة التفكير فيه. وهي دعوة لعب أبناء مستعمرات الأمس القريب دورا هاما في إرسائها من خلال إعادة قراءات النصوص المشكلة للبناء العتيق للفلسفة الغربية. وهي الحركة التي دعا إليها ومارسها وأصاب غيره بعدواها الفيلسوف جزائري الأصول مغاربي المنبت إفريقي الثقافة جاك ديريدا. وهو منحنى يمكن إدراج إدورد سعيد وهومي بهابها وفرانز فانون وستيوارت هال ضمنه. من المثير للانتباه وللتأمل أن نرى الثراء الكبير للنظرية الذي يجعل الدراسات الثقافية تخصصا مرنا فيجعلها بذلك تتشكل بشكل خاص كلما عبرت حداً جغرافيا. فأنت إن ذهبت إلى أميركا وجدت هيمنة لموضوعات كالنظرية السياسية والاقتصاد السياسي والدور المركزي للميديا في صناعة الوعي وفي رسم الخطاطات الايديولوجية، فإن أنت عبرت المحيط إلى آسيا القصوى وجدت القوم يتناولون مواضيع كالهجنة ودور الاقليات والفضاء مابعد الكولونيالي الذي لعب دورا كبيرا في الهندسة الثقافية في بلدان أصابها الاستعمار في شفرتها الجينية. وإن أنت ساءلت الدراسات الثقافية في أوروبا وجدت جبهة قوية تمثل أوروبا العتيقة المولعة بقضايا الايديولوجيا والهيمنة الأبوية وبصورة الخروج العسير من دولة الأب المهيمن أو الدولة الفاتيكانية، إن صح التعبير، إلى الشكل العولمي للدولة الافتراضية مفتوحة الحدود التي تملك الف عين ولا ترى إلا ما تريده هي حينما لا تريده أنت. أما في بريطانيا فسوف تجد تكرارا عصابيا لعنوان اليسار الذي ورثه بشكل موفق جدا نبلاء العصر الفيكتوري فشكّلوا مذهباً "فابيا" يجتهد لأجل المحافظة على طبقة نبيلة راقية تملك معنى "معينا" للثقافة مع انفتاح غريب الشكل والمعنى على الثقافات التحتية – كما يظهر ذلك في الميدان الذي هيمن عليه الانغليز في القرن العشرين: الموسيقى الشعبية ، وهو تراوح بين المعنى "النبيل" والمعنى "المهلهل" للثقافة لا يمكن تصوره في ألمانيا أو فرنسا ...

اما إن بحثت عن الدراسات الثقافية في البلاد العربية التي تعنينا أكثر من غيرها فإنك ستجد عكفا مبالغاً فيه على إدورد سعيد، وتكراراً لمقولاته لا يحده حد، بحيث صارت الدراسات الثقافية مختزلة في كتابين هما "الاستشراق" و"الثقافة والإمبريالية"، وفي مقولتين أو ثلاث مما هو وارد في لائحة محتويات الكتاب... وهذا ما دفعنا في هذا الكتاب صوب اتخاذ موقع الدارس الثقافي بدلاً من الحديث المكرور غير المهضوم عن الدراسات الثقافية. وفضلنا تناول مجموعة من الموضوعات التي كثيراً ما اشتغلنا عليها بطريقة العيون المتعددة للدراسة العابرة للتخصصات مع تحديد دائرة التنظير للمقاربة الثقافية التي نندرج ضمنها. فإن قال قائل بأنها مقاربات لا تتماس أحياناً مع الدراسات الثقافية بمعانيها المدرسية المألوفة، وتخطى هذا التماس مرات أخرى، قلنا له إن الدراسات الثقافية مائة شعبة فإذا أنت اخترت شعبة جانبت بالضرورة تسعاً وتسعين شعبة.

وعلى سبيل تيسير أمور الباحث في هذا الميدان نورد جملة من الكتب الهامة المشكلة لملاح هذا الأفق المعرفية:

توني بينيت:

- ولادة المتحف: التاريخ والنظرية والسياسة. لندن: روتليدج ، 1995.

- الأدب الخارجي. لندن: روتليدج ، 1990.

جوديث بتلر: مشكلة النوع الاجتماعي: النسوية وتخريب الهوية. نيويورك: روتليدج ، 1990.
جيمس و كاري: التواصل كثقافة: مقالات عن الإعلام والمجتمع. بوسطن: Unwin Hyman ، 1989.

جون كلارك: الأزمنة الحديثة والأعداء القدامى: مقالات عن الدراسات الثقافية وأمريكا. لندن: روتليدج ، 1992.

بول جيلروي: ضد العرق: تخيل الثقافة السياسية خارج إطار اللون. جامعة كامبريدج ،
ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد ، 2000.

لورانس غروسبرغ: جلب كل شيء إلى الوطن: مقالات حول الدراسات الثقافية. دورهام ،
كارولاينا الشمالية: مطبعة جامعة ديوك ، 1997.

لورانس غروسبيرغ و نيلسون كاري و باولا تريشلي: الدراسات الثقافية. نيويورك: روتليدج ،
1992.

ستيوارت هال: الطريق الصعب للتجديد؛ التاتشيرية وأزمة اليسار. لندن: فيرسو ، 1988.

ستيوارت هول وبادي وانيل: الفنون الشعبية. بوسطن: منشورات المنارة ، 1964.

ديك هيببيديج: الثقافة الفرعية: معنى النمط. لندن: ميثوين ، 1979.

ريتشارد هوجارت: استخدامات محو الأمية: جوانب حياة الطبقة العاملة. لندن: تشاتو وويندوس ، 1957.

أنجيلا مكروبي: النسوية وثقافة الشباب. لندن: ماكميلان ، 1991.

ديفيد مورلي: التلفزيون والجمهور والدراسات الثقافية. لندن: روتليدج ، 1992.

ديفيد مورلي وكوان هسينج تشين : ستيوارت هال: الحوارات النقدية في الدراسات الثقافية. لندن: روتليدج ، 1996.

ميغان موريس: بعد فوات الأوان: التأخير في الثقافة الشعبية. بلومنجتون: مطبعة جامعة إنديانا ، 1998.

نيلسون وكاري ولورانس غروسبرغ: الماركسية وتفسير الثقافة. أوبانا: مطبعة جامعة إلينوي ، 1988.

نيكولاس روز: سلطات الحرية: إعادة صياغة الفكر السياسي. كامبريدج ، المملكة المتحدة: مطبعة جامعة كامبريدج ، 1999.

غاياتري سبيفاك: في عوالم أخرى: مقالات في السياسة الثقافية. نيويورك: ميثوين ، 1987.

ريموند ويليامز:

البلد والمدينة. نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد ، 1973.

الثقافة والمجتمع ، 1780-1950. نيويورك: هاربر ورو ، 1958.

الثورة الطويلة. ميدلسكس: البطريق ، 1965.

التلفزيون: الشكل التكنولوجي والثقافي. لندن: فونتانا ، 1974.

المحاضرة الرابعة

مرجعيات تحليل الخطاب ما بعد الاستعماري ومراجعته

- تحليل خطابات المناطق¹

سواء أكانت تتعامل مع قضايا المجتمعات المتحررة حديثاً من الاستعمار أو الهويات المجروحة أو المعرضة باستمرار للندوب التاريخية التي يفوق خفيها ظاهرها، فإن جميع الدراسات التي ترتضي لنفسها شارة "مابعد الاستعمارية" تبدو مبنية بشكل أساسي على نفس المبدأ: دراسة "ثقافة" محتفظ بها للأقلية، ثقافة تحتل هامشاً ما؛ جغرافياً أو تاريخياً أو كليهما معاً، ولكنها ثقافة أهملت العلوم الإنسانية الأكاديمية المعهودة في برامجها. إن مرحلة تحرير البلدان المستعمرة قد جاءت لأسباب معقدة في الفترة نفسها التي عرفت الحرب الباردة ... وهي مرحلة عرفت تقوية معينة للبلدان المستعمرة؛ بدأت باكتساب الصلابة الأيديولوجية اليسارية المضادة للفكرة الاستعمارية، والشجاعة في معارضتها، على عكس باقي التيارات الإنسانية التي تفرق تماماً بين الإنسانية كمفهوم وبين الإنسان كشخص يجبرنا على اتخاذ مواقف لصالحه.

الظاهر أن البروز المفاجئ لهذا المكون المنسي لقرون طويلة، والذي هو الأسمر والعربي والزنجي والأصفر الذين لم يكن لهم وجود من قبل إلا في بعض المرويات الجغرافية التي بعضها تاريخ هيرودوت، أو مرويات ابن بطوطة والمسعودي في أحسن الأحوال ... هذا البروز في اعتقادي هو الذي أدى إلى ظهور "دراسات" بالشكل المعروف في مرحلة التمهيد للحركات الاستعمارية، التي احتاجت كثيراً إلى شيء كالدراسات الثقافية للمناطق area cultural studies .

اللتوسع أكثر يراجع: مقدمة فيصل الأحمر لكتاب: نادية بوحاريش: النظرية ما بعد الكولونيالية، دار الماهر، الجزائر، 2019. ص7 وما بعدها.

وربما تكون الولايات المتحدة لأسباب واسعة المدى تتراوح بين الرغبة في الهيمنة الثقافية والبحث عن حلول سياسية للإشكاليات التي تجرّها الجاليات الكثيرة التي تمثل اقلّيات عرقية مندمجة بشكل غير كلي في الجسد الأميركي. تشكّيلات احتاجت إلى تشجيع تدريب الخبراء الأكفاء على اللغات والثقافات الأجنبية ، وقادرة على إطلاعهم على هذه المنطقة أو تلك في العالم. هذا هو السبب في أن دراسات المناطق كانت ، في البداية على الأقل ، مدعومة جزئياً من قبل حكومة الولايات المتحدة. فقد كانت الدراسات التي أجريت في هذا الإطار ولا تزال خطيرة للغاية ، لكن هدفها المزدوج - "الاستراتيجي" أو السياسي أو "المعرفي" - يجعلها مجالات إشكالية: إنه مثال مثالي للتواطؤ الذي وصفه ميشيل فوكو بين المعرفة والقوة.

على سبيل المثال ، دراسات جنوب شرق آسيا ، أو دراسات الشرق الأوسط. وقد ساعدت دراسات المناطق بهذا المعنى على إنشاء خريطة للعالم من الغرب. هذا لم يمنع علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين وعلماء السياسة من القيام بعمل حقيقي في هذا السياق. لكنهم تساءلوا تدريجياً عن المبادئ التي تحكم دستور مجالات البحث هذه ومعنى حدودها. النقطة الرئيسية لاتجاه الدراسات ما بعد الاستعمارية النقدي ستكون انتقاد إدوارد سعيد لدراسات "المستشرقين" في أواخر سبعينيات القرن الماضي، وهي بسبب سياقها الخاص؛ صدورها من كاتب أميركي فلسطيني الأصول، ستحظى بحظ واسع من التعليق والقبول. من المؤكد أن معظم كتابه الاستشراق ، يتعلق بخطابات المستشرقين الأوروبيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أراد إدوارد سعيد أن يظهر زيف ادعاءات الدستور التقدمي لمجال الدراسات الشرقية الذي كان خادماً لتبرير التوسع الاستعماري الأوروبي... ولكنه في نهاية كتابه يذهب على أبعد من ذلك إذ يوضح أن أمريكا الإمبريالية استولت على أوروبا الاستعمارية في هذا المجال. ويقوم بتحليل كثير من التشكّيلات الخطابية على طريقة ميشال فوكو، ليلبغ درجة التشكيك في المبادئ التأسيسية لدراسات المناطق المذكورة أعلاه هذه. وقد ظهر جدل كبير ومعروف نتيجة الإدانة الصارخة الصاخبة لعمل برنارد لويس ، "الخبير" الأمريكي العظيم في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

رغم أن الفكرة السائدة هي أن دراسات المناطق هذه هي أصل التفكير مابعد الاستعماري إلا أن الدراسات اللاحقة لما بعد الاستعمار - والتي يعتبر سعيد هو السباق بها والسابق فيها كما سيتم بيانه لاحقاً في هذه المحاضرة - ستظهر صورة رفض معين لهذا الدراسات، إذ ستتحدى نظرية ما بعد الاستعمار فكرة أن هناك "مناطق ثقافية" محددة ومستقرة ومتجانسة ؛ وكل ذلك سيظل بلا

نتائج في الواقع الأكاديمي الأميركي، ولكنه سيكون عظيم الأثر بالنسبة لأبناء المستعمرات المتحررين حديثاً، إذ سيسهم هذا الإطار النظري في توليد البحوث متعددة التخصصات على مفترق طرق "العلوم الإنسانية" والعلوم الاجتماعية. في مرحلة لاحقة، تاريخياً، تعتبر نظرية ما بعد الاستعمار وراثية لمجالات الدراسة التي تطورت منذ سنوات 1960 في اتصال مع حركات إنهاء الاستعمار والتحرير. هكذا نشأت مثلاً الدراسات الإفريقية في الجامعة الأميركية. لقد كانت تعبيراً (أو أداة) لاستراتيجية مزدوجة للتأكيد والمقاومة المؤسسية من جانب النخبة الأقلية الأمريكية السوداء المحظوظة التي التحقت بالتعليم العالي. فمن خلال هذه الدراسات وبواسطتها، كان على "الأمريكيين من أصل أفريقي" الذين كانوا رعايا وأتباعاً، مواصلة عمل التحرر: "إنهاء الاستعمار" الداخلي.

لذلك كان منهجهم متناقضاً مع منهج دراسات المنطقة، والذي كان يمكن أن يسميه سعيد المستعمرين الجدد، إذ يبدو أن ما كان يحدث أكاديمياً ساعتها هو إعادة اكتشاف قارة ظلت "سوداء" بسبب تجاهلها واحتقارها، وليس إعطاء أوراق اعتمادها المعرفية لمجال من التحقيقات الجديدة.

تحليل الخطاب الاستعماري إدورد سعيد

إن كل قراءة لكتاب الاستشراق لإدوارد سعيد تشعرك بأن الكتاب يمثل منعرجاً جاداً في ميدان تحليل الخطاب. إن فيه طريقة جديدة في تعاطي مفاهيم تحليل الخطاب التقليدية. وربما جاز لنا هنا أن نقول إن الإضافة الكبيرة التي سيحتفظ بها التاريخ لميشيل فوكو – كما رأينا في محاضرات سابقة- هي تحذيره إيانا من "خبث" الخطابات فيما هي تتظاهر بالطيبة. وما فعله إدورد سعيد في هذا الكتاب هو تحديداً كشف هذا العمل التحتي الخفي .

يعيد الكتاب بشكل ما استنهاض إشكاليات الهوية القديمة في الفلسفة، ولكن بعيداً عن التعقيدات النظرية غير المجدية للمقولات التي لا نرى لها ظلاً على أرض الواقع، وإنما في إطار الجغرافيات التي تنبض بالحياة. وربما يكون الفاعل الرئيسي في ظهور هذا النزوع الذي زلزل أرض تحليل الخطاب هو المسار الشخصي لإدورد سعيد الذي عايش فسيفساء هامة من الأماكن

بين الشرق والغرب، ثم خضع لتكوين معرفي وأكاديمي ولغوي أميركي، الشيء الذي دفع مفكرا مثل تزفيتان تودوروف أن يقول بأن التعدد كان جزءا من هوية إدورد سعيد، الذي اسمه الكامل (إدوارد وديع سعيد) وهو علامة فصيحة بالتعدد، وباب مشرع على إشكاليات الهوية.

وربما يذهب في الاتجاه نفسه ما ذهب إليه منظر هام مثل بيل أشكروفت (وكثيرون غيره في الواقع) أثناء الحديث عن عجز الخطاب الاستعماري عن احتضان هويات جديدة أوردتها مستجدات الجغرافيات المستحدثة نتيجة لحركة الاستعمار، فهو يرى أن الدافع على ظهور اتجاهات مابعد استعماريه أصلا هو هذه الإشكالية التي ربطتها بالهوية التي ترفض التعدد، وكل ذلك نتج عنه لاحقا «عدم قدرة النظرية الأوروبية على تناول مختلف تعقيدات كتابة ما بعد الكولونيالية تناولا وافيا، بسبب تنوع منابعها الثقافية، فالنظريات الأوروبية ذاتها انبثقت من تقاليد ثقافية معينة أخفتها الأفكار المزيفة حول "العالمي" إن ممارسات كتابة ما بعد الكولونيالية تطرح للتساؤل على نحو راديكالي نظريات الأسلوب والنوع الأدبي والفروض المتعلقة بالملامح العالمية للغة، فضلا عن الإبستيمولوجيات وأنساق القيم.

لقد بدأت نظرية ما بعد الكولونيالية من الحاجة إلى تناول هذه الممارسات المختلفة فقد تطورت النظريات التي تتناول السكان الأصليين Indigenous Theories كي تتسع لتشمل الاختلافات داخل مختلف التقاليد الثقافية فضلا عن الرغبة في إجراء مقارنة وصفية للملامح المشتركة بين تلك التقاليد»².

الخلاصة لاحقا ستكون بأن إدورد سعيد يندرج ضمن الإطار الفكري التاريخي الذ نشأ فيه (مابعد الحداثة) فتجده مثل 'لام هذه الحقبة يرفض في الهوية انغلاقها أو يرفض التواجد داخل هويات منغلقة، لأن مآلها في النهاية الاندثار. فالهوية ليست نقية ولا فريدة متفردة وليست متصفة بالأصل أو الثبات، بل هي هوية تعدد وهجنة تصلح لها صفة انها شعوب وقبائل.

² - بيل أشكروفت وآخرون: الرد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ص 31.

خطاب حدائي في اتجاه معاكس

من الميد الوقوف لدى فكرة فتحي المسكينّي التي مفادها أنّ الاستشراق هو (الوجه المنسيّ من الحادثة)، ... وربما من هذا المنظور يمكننا فهم العتاد الفلسفي الحدائي الذي استعمله إدورد سعيد كأدوات لا يمكن إلا وصفها بالحدائية التي تحيل على المركزية الغربية، كما يسميها جاك ديريدا، بهدف تحليل مقومات الوعي الغربيّ لفكرة الاستشراق.

وربما جازلنا من نبدأ بالحديث عن الخطاب بمثابة استعادة للتاريخ³؛ إذ يصر إدورد سعيد في كتابيه اللذين نحن بصددهما على ذكر مرجعيّاته الفلسفية التي تنتهي بان تكون الصورة المنهجية الخلفية التي يعتمد عليها: لوسيان غولدمان، رولان بارت، ليو شتراوس، ميشال فوكو (ولهذا بالذات دور كبير جدا يصر عليه إدورد سعيد)، ويذكر كذلك: أنطونيو غرامشي، ومصادر أدبية كثيرة تمثل الخلفيات النصّوصية التي يعمل عليها كمادة (وأهمها على الإطلاق جوزيف كونراد صاحب رائعة "قلب الظلام" التي تعد أنموذجا ممتازا للمحاولات القليلة لوقوف الغربي خائبا أمام مشاريع العظمة والمركزية).

على يد أخرى يتناول إدورد سعيد بالدراسة محطات تاريخية معاصرة خاصة من واقع الحياة. مثل: نكسة 1967 وطريقة النظر إليها في أميركا، وقد يكون تمثيل النكبة في المخيال الأميركي هو المهماز الذي لفت الانتباه إلى إشكاليات التمثيل. نبّهت إدوارد سعيد إلى مسألة الهوية، حرب 1973 والتي نبّهته إلى مسألة الاستشراق، حرب 1990 إلى مسألة النهايات.

ومن هنا جب السؤال حول الجوهر الخطابي للأداة الغربية لتحسين الذات الشرقية. وهل انه – من زاوية تظر أبناء المستعمرات- يمكن اعتبار دراسات الخطاب مابعد الكولونيلالي رجوعا إلى الحاضنة الصلية للشرق. أي أن ما يقوم به إدورد سعيد هو بالضبط تشريق الخطابات الغربية؟

³لطيف نجاح شهيد القصاب: الاستشراق في فكر إدوارد سعيد قراءة في منهج الخطاب، مجلة: دراسات استشراقية، ع

سوف يكون الأكيد في أمر هذا الاتجاه المثير للدهشة في مسار تطور تحليل الخطاب هو أنه عمل أكثر من أي نمط لدراسة الخطاب عرفناه من قبل من قبل، على كسر الهيمنات الغربية المعروفة.

إذا كانت هنالك ميزة في هذه الطريقة الجديدة تتضح جلياً أمامنا من خلال التورط المعرفي في كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" فهي الميزة الكامنة في التفكير من خلال الخطابات، أقصد ان ما نفعله هنا ليس التفكير في الخطابات فقط، بل التفكير من خلالها أيضاً. لينتج خطاب فكري بليغ أكثر من كونه نصاً مكتوباً بروح علمية خالصة، فليس هو بحثاً منهجياً يستقرئ كتابات المستشرقين للكشف عن الموقف الثقافي المرتبط بالسلطة مثل ما ذهب إليه بعض النقاد، ولا هو مجرد سياحة تأملية محملة بإسقاطات أيديولوجية، تغذيها تجارب الكاتب الشخصية، ولواعجه النفسية.

النقطة الأساسية التي يثيرها هذا البحث هي أن إدوارد سعيد استطاع أن يحرز نجاحاً مذهلاً في جعل كتابه الاستشراق مقروءاً على الصعيد العالمي والغربي على وجه الخصوص بسبب موقعه الأكاديمي المرموق، هذا الموقع الذي استثمره الكاتب خير استثمار في مجال ربط المعرفة بالسلطة، وكذلك بفضل قدرته الباهرة على «مخاطبة» النخبة والجمهور على السواء بلغة إنكليزية فذة يحسده عليها حتى كبار الكتاب الإنكليز.

ويمكننا باختصار وفعالية نخلص إلى أن إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق كان أديباً ملتزماً بأداء رسالة سياسية أو أخلاقية أكثر منه ناقداً في موضوع أدبي صرف يقتضي تغليب العلم على ما عداه. وأغلب الظن أن النجاح الذي أحرزه الكتاب مرده إلى هذا المنهج الصادم الذي اتبعه المؤلف باحترافية عالية حينما لم يعمد إلى تصنيف موضوع الاستشراق إلى أنواع أو أشكال مختلفة على غرار ما اتبعه السابقون من المشتغلين بهذا الحقل المعرفي، بل اكتفى إدوارد سعيد بتقديمه جملة واحدة، والحكم عليه حكماً مطلقاً.

نصر إحدى تلميذات طريقة إدوارد سعيد؛ هي أنيا لومبا على ان "الاستعمار" خطاب عالمي لا حدود له. وتصر دوما على أن الاستعمار «ليس مجرد توسع عدد من القوى الأوروبية إلى آسيا وأفريقيا والأمريكيتين منذ القرن السادس عشر وبعده، بل لقد كان سمة واسعة الانتشار ومتكررة في التاريخ الإنساني كما لدى الإمبراطورية الرومانية، والمغول، وحضارة الأزتك

والفتح الإسلامي، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الصينية، ومع ذلك فإن كل ما سبق لم يشهد ممارسات استعمارية كالتى قادها الأوروبي وعملت على تغيير سطح الكرة الأرضية بأكملها لقد فعل الاستعمار الحديث أكثر من استخلاص الإتوات والبضائع والثروة من البلدان المقهورة وأدخلها في علاقة معقدة مع اقتصاده هو بحيث أصبح هناك تدفق للمصادر البشرية والطبيعية بين البلدان المستعمرة والبلدان المستعمرة»⁴.

وهذا ما يفسر كون الأسماء المعروفة في أفق تحليل الخطاب ما بعد الكولونيالي تتوزع على القارات الأربع: افارقة (سيدار سنغور، سمير أمين، شيخ أنطا ديوب، فرانز فانون)، أوروبيون (بليز سندرارز، ألبير ميمي، أعلام النظرية الفرنسية)، آسيويون (إدورد سعيد، هومي بهابها، غياطري سبيفاك، أنيا لومبا، سيد حسين العطاس، إعجاز أحمد...)، أميركيون (تشي غيفارا، روبرتو فيرنانديز ريتامار، روبرت ياونغ، روبرتو مينالو، سيلفيا تشانغ، آدم فايسمان، إسماعيل ريد، إدورد سعيد...الخ).

والظاهر ان تنظيم الوعي الجديد بالخطاب الاستعماري قد خضع لنفس المسارات التي تشكل بها الخطاب الاستعماري، أي طريقة بناء الأمبراطورية؛ وفي هذا الإطار نشير على المقاربة النظرية الهامى التي أقامها أنطونيو نيغري (رفقة مايكل هارت) من خلال الكتاب الهام "إمبراطورية"⁵ وجوهر الإمبراطورية كما يشرحه المنظرون هو تنظيم هرمي قواعده النظام الأمبريالي وأداته التي الكلاسيكية التي هي الاستعمار. فالإمبراطوريات حسب "دوغلاس روبنسون" تجمعات اقتصادية بوجوه عسكرية وسياسية، وهي هياكل اقتصادية ضخمة وعريقة، تشكلت وتركت آثارها على الوعي البشري على أوسع نطاق كما يمكننا أن نلاحظ المر إذا تأملنا الامبراطورية الرومانية قديما والبريطاني حديثا. فهي تقوم على علاقات وتعاملات معقدة أساسها الغزو العنيف والاحتلال القسري ، والاحتواء الثقافي والسيطرة المالية والإدارية، «والإمبراطورية هي نظام سياسي يقوم على السيطرة العسكرية والاقتصادية التي توسع من خلالها جماعة معينة سلطتها على كثير من الجماعات الأخرى وتعزّزها.

⁴- أنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص 19.

⁵ Michael Hardt, Antonio Negri, *Empire*, Paris, Éd. Exils, 2000.

والإمبراطورية ليست ظاهرة حديثة فهي في حقيقة الأمر، واحدة من أقدم أشكال الأنظمة السياسية الضخمة التي نعرفها مثل: الإمبراطورية الصينية، الإمبراطورية الآشورية، الإمبراطورية الفارسية، الإمبراطورية الرومانية... ومع انتشار حركات الاستقلال والتحرر في أرجاء البلدان المستعمرة وإدراك الرعايا المتزايد أن الإمبراطورية لا تعني: الحماية من الأعداء الخارجيين أو الانتماء إلى مشروع جبار (...). بقدر ما تعني: الاستئساد العسكري والسيطرة السياسية، والاستغلال الاقتصادي، والهيمنة الثقافية، وهكذا بدأت صفة الإمبراطوري تفقد معانيها الإيجابية التي تشير إلى الرفعة والجبروت، والشموخ، والسمو، وراحت تغدو مجرد مصطلح حيادي، وفي الوقت ذاته صارت صفة الإمبريالي تستخدم مزيدا من الاستخدام بمعنى سلبي، لكي تصور الأفعال والمواقف الإمبراطورية بوصفها ضربا من الاستئساد الاستغلالي المناهض للديمقراطية»⁶.

في هذا الإطار النظري يمكننا فهم فكر إدورد سعيد الذي يطرح جملة من الأسئلة على هامش هذه الإشكاليات المنهجية من قبيل: كيف يمكن لافتراضات منهجية حول توحيد الاختلاف الثقافي تحت راية الثقافة الإنسانية أن تؤصل إلى مواقف حديثة وتصلبات تأتي بنتائج معاكسة تماما للمبتغى الأول؟

ما الذي نسميه ثقافة أخرى؟... وهل أن فكرة الثقافة المتميزة (أو العرق، أو الدين، أو الحضارة) هي فكرة مفيدة بالضرورة؟ أم أنها قد تتورط في تركية الذات أو في شكل من أشكال العداء والعدوان؟

هل الاختلافات الثقافية والدينية والعرقية تهم أكثر من الفئات الاجتماعية والاقتصادية، أو تلك السياسية-التاريخية؟

وبصيغة أخرى هل أن التاريخ يكتب في الواقع من المنظور الهيجلي المذكور أعلاه أم أنه يكتب من منظور ماركسي حسب حتميات لا دخل للمثاليات الإنسانية فيها؟

إدورد سعيد لا يجيب بشكل مباشر على هذه الأسئلة، هو يكتفي بضخ شبكات فهم جديدة للظواهر المشكلة للصلة بين المستعمر وغريمه المستعمر، دون السقوط في شرك الفعل حسب مبدأ رد الفعل لأنه تفكير جوهري غالبا ما يجعل قشور القضايا تتغلب على لبابها، هو يقترح إطارا من

⁶ دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية: الدراسة ما بعد الكولونيالية، دراسات الترجمة. ترجمة: ثائر ديب، مجلة نزوى ع 45، عمان، 2009/07/20، ص2.

الباراديجمات والمسارات المنهجية للخروج بالمعرفة من الولاء الإيديولوجي الذي يجعل أعمال الجغرافيين تشبه أعمال الساسة المبشرين بالاستعمار، ويجعل المصادرات غالبية على روح التنقيب، فيغلب على الضرورة الفكرية التفكير في الضرورة... ويغلب روح العالم على روح التاجر أو رجل المال والأعمال.

يقدم إدورد سعيد مثلاً على هذا النوع من العمل الذي يدعو إليه ذلك البحث الذي أجراه كليفورد غيرتز ، في إندونيسيا ، وأيضاً في المغرب ، ليس كشرقي أو متخصص في الإسلام ، ولكن كأنتروبولوجي. كعالم الأنثروبولوجيا غير المهتم بـ "منطقة جغرافية سياسية" محددة بشكل غامض ، بل هو غارق في وضع محلي للغاية ومندمج معه. من هذا المنظور، تصبح الدراسة أفقا منهجيا فلسفيا، وتصير كل قطعة من الانثوغرافيا هي مساهمة في الجهود المبذولة للتفكير في العلاقات الثقافية والثقافات. في العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية ، وتصبح كل بحث إمكانية لإرساء نموذج معرفي جديد، قد تكون أساليب بحثية جديدة في علاج "الآخر".

إذا تأملنا مقولات إدورد سعيد حول ابتكار حلم "المشرق" فإننا سنفهم المقولة الفوكوية المسيرة لكل ذلك: السلطة والمعرفة ... وربما يكون الرجوع بقطار التاريخ الاستعماري إلى السكة الإنسانية محتاجا إلى ضخ دماء باراديجمات جديدة، وإعادة تأهيل البشرية جمعاء لكي تحضر نفسها لتقبل أرضيات ثقافية جديدة؛ ثقافة الآخر، مبدأ التعدد، التربية الإنسانية، مفهوم إنسان الكوكب... وكل ما يرتبط بمفهوم الاختلاف الثقافي (أو الديني ، أو العرقي ، ... الخ)...

والمرجح حسب كثير من الملاحظين هو أن خير من يقوم بهذه المهمة هم أبناء المستعمرات المتحررة حديثا ممن انتقلوا للعيش في البلدان الغربية، خصوصا من المتخذين جنسيات جديدة أو المولدين ممن ولدوا بأراض كانت بالأمس عدوة لأسلافهم... فهذا الوضع يسمح لهم بالحديث بعيدا عن التقاطبات الخصامية والتحديدات الجغرافية التي تتلاعب ببساطة بذات الباحث فتحركه بين "أنا" و"هو" على هواها...

فائدة الدراسات مابعد الاستعمارية هي أنها قد تحولت إلى أفق بعدما كانت مبحثا أو دراسة وكفى. أفق ينظر إلى الخلف فيستجلب نصوصا تخدم وجهات نظره أو باراديجماته المحركة، وينظر صوب الأمام فيصحح النظر، ويحذر، ويصمم ويصنع شيئا ربما جاز لنا أن ننتعه بالهندسة العقلية للمستقبل البشري.

(قراءة كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد تعطي استنتاجاً تدريجياً بأن الكتاب يمثل خطاباً فكرياً بليغاً ذا صفة إعلامية، أكثر منه نصّاً مكتوباً بروح علمية خالصة على الرغم من استعمال الكاتب 414 هامشاً تحيل القارئ إلى مراجع أجنبية مختلفة. فليس الكتاب بمجمله بحثاً منهجياً يستقرئ كتابات المستشرقين للكشف عن الموقف الثقافي المرتبط بالسلطة كما وصفه مترجم الكتاب الدكتور محمد عناني؛ إذ الكتاب في خطه العام لم يؤد مهمة الاستقراء بالمعنى الذي ذهب إليه المترجم بإقرار الكاتب نفسه الذي سنورده لاحقاً. والكتاب يتكئ في أطروحته الأساسية على جملة من التعميمات على الرغم من طابعه الاستدراكي العام، وتشمل هذه التعميمات الاستشراق والمستشرقين على السواء، من دون تمييز بينهم بحسب النوع أو الاتجاه، فالاستشراق استشراق واحد واتجاه واحد، وواقعه « معادٍ للإنسانية»، والمستشرقون لا يتميز أحدهم عن الآخر، وهم جميعاً يمثلون رابطة « لها تاريخٌ محددٌ في التواطؤ مع السلطة الإمبريالية». واستعمال لغة التعميم واقعياً لا يمكن نفيها اتكالا على شعور الكاتب بخشيته من هذه اللغة التي يصفها بعدم الدقة ويقرنها بممارسة التشويه، حين يقول: «تتصر مخاوفي في أمرين: التشويه وعدم الدقة، أو بالأحرى ذلك اللون من عدم الدقة الذي ينتج عن التعميم». أو حينما يتنصل عن تأكيد التصريح بالتعميم، فيقوم بطرح سؤالٍ مفاده هل إن البحث اللغوي الذي قام به نفرٌ من المستشرقين الباحثين في اللغات الشرقية القديمة يدخل تحت بند الاستشراق السياسي أم إنه يمثل نوعاً من الاستشراق قائم على البحث العلمي المجرد؟ ثم يجيب إدوارد سعيد قائلاً: «التساؤل عما إذا كانت مناقشة الآداب أو فقه اللغات القديمة تحمل دلالةً سياسيةً أو تضم في تضاعيفها دلالةً سياسيةً مباشرةً تساؤلٌ عريضٌ واسع النطاق حاولت معالجته ببعض التفصيل في كتاب آخر. وكان بإمكان إدوارد سعيد أن يحيل القارئ إلى كتاب الاستشراق نفسه لا إلى كتابٍ آخرَ باعتبار أن كتاب الاستشراق يصرح تصريحاً لا مواربة فيه بضم أيّ جهدٍ أكاديميٍّ استشراقيٍّ سواء ما يدخل في البحث اللغوي أو التاريخي ونحو ذلك إلى منظومة الاستشراق السياسي ذات الأهداف الاستعمارية وأن الاستشراق حتى في بحوثه العلمية يمثل أسلوباً استعماريّاً، وأن المستشرق هو «كل من يعمل

⁷ لطيف نجاح شهيد القصاب: الاستشراق في فكر إدوارد سعيد قراءة في منهج الخطاب، مجلة: دراسات استشراقية،

بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعاتٍ خاصةٍ بالشرق، سواءً كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة». ولو أن إدوارد سعيد عمد إلى الجواب المباشر عن السؤال السابق بدلاً من الدخول في تلك المتاهة اللفظية لكان قدّم لقارئه خدمةً أفضل في الفهم وسرعة الاستيعاب. ولكنني لا أستبعد إمكانية أن يكون إدوارد سعيد قد فعل ذلك عن قصدٍ بغية إكساب كتابه نصيباً أكبر من الدراسة والاهتمام، كما سنقف على ذلك لاحقاً في مبحث أسلوب الكتاب وأسباب رواجه.

يؤكد إدوارد سعيد اهتمام حركته النقدية بالاستشراق الفرنسي والإنكليزي بصفةٍ رئيسية لكنه مع هذا التأكيد لم يذكر مستشرقاً فرنسياً معروفاً بتعاطفه الواضح مع العرب مثل غوستاف لوبون، مثلما لم يذكر مستشرقاً إنكليزياً كأرنولد توينبي الذي كتب عن شخصية رسول الإسلام بمزيج من الود والإكبار، أو غيره ممن تطوعوا لتقنين حجج الاستشراق ضد الإسلام ومنها الحجة التي تزعم بأن الإسلام ما هو إلا فرعٌ مشوّء من المسيحية أو النصرانية على نحو ما فعله توماس كارليل الذي وصف المسيحية بالضوضاء الباطلة التي لا ترقى إلى توهج الإسلام وامتزاجه في نفوس أتباعه.

بل حتّى إنه لم يذكر المستشرقين الذين اشتغلوا في ميادين معرفة حضارة الشرق ودراساتها دراسة علمية منهجية، ولم يكن لهم أي ارتباط بدوائر الاستشراق الرسمية، وقدّموا ضمن ما قدموه خدمات معرفية جليّة، خصوصاً في إطار تحقيق التراث العربي، وفكّ رموزه، ونشره، ونقده نقداً علمياً، ومن هؤلاء المستشرقين من أمضى عمره، وأنفق ماله في سبيل تحقيق مخطوط، أو فكّ رمز من الرموز. إن إغفال التمييز بين العلماء المختلفين في تفكيرهم عن السائد العام، وعدم ذكر حتى المشاهير منهم بدعوى تعذر الاستقراء التام فيه جناية على البحث العلمي، لا سيما أن إدوارد سعيد يُفرد مساحةً لمشاهير الأدباء ممن خالفوا الطرح السائد في زمانهم بخصوص النظرة للشرق والشرقيين من أمثال (غوته) ونحوه، وقد تكون هذه المؤاخذة المؤشرة من لدن فريق من الناقدين لجهد إدوارد سعيد، هي المؤاخذة الأشهر والأكثر عصياناً لمحاولات التقنين مهما حاول إدوارد سعيد أن يحصّن مذهبه في الانتقاء بالقول مثلاً: «إننا نستطيع أن ندرس العلاقة بين الاستشراق الإسلامي أو العربي وبين الثقافة الأوروبية الحديثة دون أن نقوم في الوقت نفسه بذكر كل مستشرق ظهر على هذه البسيطة».

نصوص وشذرات:

وكما يقول "إدوارد سعيد" في كتابه "الثقافة والإمبريالية": «إن موضع الرّهان والمجازفة إنما هو الأراضي والممتلكات، الجغرافيا والقوة كل شيء يتعلق بالتاريخ البشري متجذّر، طبعاً في الأرض»⁸.

- " الإمبريالية عن طريق ربطها بالسيطرة على الأرض والجغرافيا يقول: «وبالضبط كما أن أياً منا ليس خارج الجغرافيا ولا ورائها فما من أحد منّا في منأى تام عن الصّراع حول الجغرافيا، والصراع مُعقّد وشيق لأنه ليس صراعاً حول العسكر والمدافع وحسب، بل هو أيضاً صراع حول الأفكار، والأشكال، والصور، والمتصورات»⁹.

- الاستعمار «أظهرت الإمبريالية طبيعتها المتغيرة وقدرتها على تغيير المراكز، والتكيف مع الديناميكية المتغيرة للقوة العالمية، وفي النهاية التطور إلى العولمية، التي يمكن التذليل على أنها خليفتها الطبيعية في آخر القرن العشرين»¹⁰.

حول فرانز فانون: «... فإن من السهل كثيراً أن يقرأ "فانون" وكأن ما كان يفعله في "معذبو الأرض" لم يكن سوى تكرار لـ "لوكاتش" مستبدلاً علاقات الذات –الموضوع بعلاقة المستعمر - المستعمر على وجه التحديد و"وعي البروليتاريا الطبقي الجديد" مصطلح "لوكاتش" الخاص بالتركيب بالعنف الثوري في نص "فانون" (...) وكان "فانون" قبل ذلك قد استخدم ديالكتيك الذات – الموضوع بطريقة هيغلية واضحة، وهذا جلي في "بشرة سوداء"، حيث يستخدم ديالكتيك السيد – العبد ليبين كيف حولت العنصرية الزنجي إلى "انحراف وجودي" غير أن "فانون" قد ميز حتى هنا بين الديالكتيك كما تصوره "هيغل" لأوروبا البيضاء، وبين الديالكتيك كما يمكن أن يستخدمه البيض ضد الزنوج»¹¹.

ويبين "إدوارد سعيد" في موضع آخر من الكتاب هذا التأثير العميق لـ "فانون" بعدة فلاسفة يقول:

⁸ - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية. ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع: بيروت-لبنان، 2004، ص77.

⁹ - م نفسه، ص78.

¹⁰ - م نفسه، ص211.

¹¹ - إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى ومقالات أخرى. ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2007، ص296-297.

«ولذا فإن من المدهش تماماً أن نكتشف ديالكتيك الذات –الموضوع وقد جند بقوة فكرية وسياسية مدمرة في عمل "فرانز فانون" الأخير معذبو الأرض المكتوب عام 1961 –سنة وفاة مؤلفه– وجميع كتب "فانون" عن الكولونيالية تظهر بوضوح مديونيته "لماركس" و"إنجلز" وكذلك "لفرويد" و"هيغل"»¹².

–